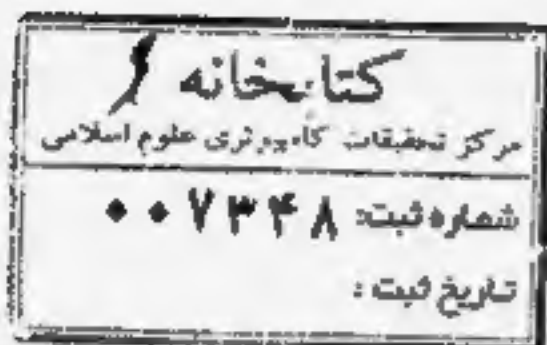


الدكتور صالح أحمد العلي



الفتوحات الإسلامية



مرکز تحقیقات کلام و فقهی علوم اسلامی

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



مرکز تحقیقات کتابخانه و اسناد ملی

حقوق الطبع محفوظة



مركز المطبوعات والتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص.ب. ٨٣٧٥٠ - بيروت - لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ (٠١)

تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ (١ ٩٦١)

e-mail: allprint@cyberia.net.lb

الطبعة الأولى ٢٠٠٤

تصميم الغلاف: عباس علي

الاخراج الفني: بسمة التقي

وكان لكل من الأمراء والحكام المحليين جيش خاص بهم يقومون بإعداده وتدريبه والتفقة عليه، وهو يأمر بأوامرهم وينفذ أغراضهم، وإذا أعلن كسرى حرباً عامة فإن كلا من هؤلاء الأمراء يقدم جيشه للقتال مع جيش الملك. فجيش الدولة مكون من جيش الملك وجيوش الأمراء المحليين المتعددين.

الروم البيزنطيون

نشأت الدولة الرومانية من التوسع التدريجي الذي قامت بها روما خلال ثلاثة قرون واستطاعت أن تسيطر على شبه جزيرة إيطاليا ثم على الأقاليم الواقعة حول البحر المتوسط، فأصبحت تهيمن على أقاليم غنية لكثير منها حضارات قديمة. وقد جلبت لها هذه الأقاليم الثروة والغنى، فنشطت فيها الحياة الاقتصادية والفكرية، وازدهر العمران.

غير أن سعة الدولة الرومانية جعل لها حدوداً برية طويلة يتطلب الدفاع عنها اهتماماً خاصاً. وقد تأمنت الحدود الشرقية لتلك الدولة بفضل الحاميات الرومانية التي وضعت في بعض المدن الشرقية، وبعد أن أعلن أغسطس «السلم الروماني» الذي اعتبر فيه الرومان نهر الفرات الحد الشرقي لدولتهم، أعلنوا توقفهم عن التوسع، وأتباعهم سياسة سلمية مع جيرانهم في الشرق. وظلت هذه السياسة سائدة، بصورة عامة، حتى أواسط القرن الثالث للميلاد عندما ظهر الساسانيون وحاولوا التوسع نحو البحر المتوسط.

أما أطراف الحدود الجنوبية لأمالك الدولة الرومانية في أفريقية فكانت تحميها أطراف الصحاري الواسعة الخالية من السكان، والتي لم تكن مصدر خطر يهدد الدولة الرومانية.

غير أن الدولة الرومانية لقيت مصاعب كثيرة في حماية حدودها الشمالية الطويلة، ف وراء تلك الحدود كانت تقطن الشعوب الجرمانية وهم قبائل غير متحضرين، ولكنهم كانوا مقاتلين أشداء، ولذلك كانوا يهددون الأطراف الشمالية للدولة. وعلى الرغم من الحملات المتعددة التي أرسلت لإخضاعهم،

والمستعمرات الرومانية التي أقاموها على تلك الحدود لحمايتها، فإن الرومان لم يفلحوا في السيطرة عليهم.

وبهذا فإن الدولة الرومانية، وبعد استقرار حدودها، واجهت كثيراً من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية، فضلاً عن المتاعب العسكرية التي كان يخلقها لها هؤلاء الجرمان.

وحاول عدد من الأباطرة الرومان القيام بإصلاحات لمعالجة هذه المشاكل، ومن أبرزهم دقليانس (٢٨٤ - ٣٠٥) الذي قام بعدة إصلاحات مالية وإدارية، من أهمها أنه جعل للإمبراطورية حاكمين متساويين في السلطة، أحدهما يقيم في روما ويشرف على الأقاليم الغربية، والثاني يقيم في بيزنطة ويشرف على الأقاليم الشرقية؛ وكان قصد دقليانس من ذلك تيسير إدارة الدولة، ولكن تنظيمه لم ينجح في ضمان التعاون بين الحاكمين، الشرقي والغربي، ما أدى في أخيراً إلى انشطار الإمبراطورية إلى شطرين متباينين.

والواقع أن الجانب الغربي من الإمبراطورية كان يعاني من الاضطرابات الداخلية، ومن تهديد الجرمان الذين ازداد تغلغلهم في الدولة وتهديدهم لها حتى استطاعوا سنة ٣٥٣م أن يستولوا على روما ونهبوا حكم الرومان فيها.

أما الجانب الشرقي فكان سكان أقاليمه متنوعين، ففيهم الإغريق اليونانيون ويسكنون في مدنها الكثيرة المنتشرة في جزيرة اليونان وفي السواحل الشرقية من آسيا الصغرى، وقد احتفظ هؤلاء الإغريق بالثقافة الإغريقية، وظلوا يتدارسون الفلسفة اليونانية. وفي شرق الأناضول كان يقيم الأرمن الذين كانت لهم حضارة قديمة ودولة قوية أزالها الرومان، لكن حضارتهم بقيت مزدهرة. وفي الأقاليم الجنوبية كان العرب يسودون في جنسهم ولغنتهم وثقافتهم، وخصوصاً في أقاليم الجزيرة الفراتية والشام وفلسطين، كما كان المصريون وسكان شمال أفريقية قد احتفظوا بحضارتهم وتقاليدهم العريقة.

ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة في هذه الأقاليم الشرقية ونمت فيها المدن، وتقدمت الحركة الفكرية، وقد ساعد على هذا الازدهار والتقدم انتشار الأمن فيها. فقد كانت حدودها آمنة، لم يهددها إلا الساسانيون في الشرق

والسلاف في الغرب، ولكن هؤلاء لم ينجحوا في تشكيل خطر أساسي على الدولة البيزنطية.

وتميزت الأقاليم الشرقية بقدّم وسعة انتشار المسيحية فيها. والمسيحية هي الدين الذي بشر به السيد المسيح، الذي كان قد ظهر في فلسطين وأتبعه عدد من الناس ثم ارتاب به الحكام الرومان وحكموا عليه بالصلب قبل أن تكتمل تعاليم الدين المسيحي أو يستطيع تكوين دولة مسيحية. وقد انتشر أتباعه في مختلف البلاد وصاروا رسلاً يبشرون تعاليمهم ويشرحونها، ودون كل منهم تعاليم المسيح وأقواله وسيرته، فكانت أناجيل يتداولها الناس. وتابع الحكام الرومان اضطهاد المسيحيين وعملوا على قمع المسيحية، ولكنها مع ذلك تابعت دعوتها بصورة سرية وخصوصاً في الأقاليم الشرقية حيث ازداد انتشارها وكثر أتباعها، بين العامة، وأصبحوا قوة لا يمكن تجاهلها، فاضطر حكام تلك الأقاليم إلى التوقف عن اضطهادها، ثم اعتنقوها هم أنفسهم وبذلك صارت ديناً رسمياً للدولة.

غير أن المسيحية بعد أن أصبحت ديناً رسمياً، بدأ كبار رجالها يبحثون في طبيعة المسيح وعلاقته بالله تعالى، فرأى بعضهم أن المسيح إله، ورأى آخرون أنه إنسان فيه روح الإله، ورأى فريق ثالث أن المسيح إنسان في الأرض إله في السماء، واختلفوا أيضاً في مكانة مريم أم المسيح، فرأى بعضهم أن لها صفة قدسية، ورأى بعضهم أنها امرأة محترمة لأنها حملت المسيح فحسب، وقد اشتد بينهم الخلاف وظهرت فيهم الفرق، فحاول بعضهم نشر أفكاره في الأقاليم البعيدة عن العاصمة، فحازت تلك الأفكار تأييد كثير من النصاري في تلك الأقاليم بدافع من اعتقادهم أو نكابة بالملوك. وهكذا أصبحت هذه الفرق المسيحية تعبر عن الاختلافات العنصرية والقومية والحضارية بين أبناء أقاليم الدولة الشرقية، فأيد معظم سكان الجزيرة الفراتية النسطورية، وأيد الغساسنة ونصارى الشام اليعقوبية، وأيد المصريون الملكانية، وأهل تونس الأريوسية، حتى أصبح الخلاف بين هذه الفرق على أشده ومصدر خطر لإضعاف الدولة. ويلاحظ أن الأقاليم كافة، التي يقطنها العرب في الشام، وكذلك مصر وتونس، لم تعتنق المذهب الذي اعتنقه أهل العاصمة القسطنطينية، الأمر الذي يظهر عدم تأييدهم لها.

تعرضت الأطراف الغربية للدولة البيزنطية لتهديدات وأخطار من قِبَل البلغار والسلاف الذين تقدموا في القرن الرابع للميلاد من جهات روسيا، وهاجموا الدولة البيزنطية، لكنهم أخيراً استقروا في البلقان فخفف خطرهم على الدولة.

أما في الشرق فإن الساسانيين أثبَعُوا منذ بداية تكوين دولتهم سياسة توسعية، وحاولوا الوصول إلى البحر المتوسط، ولتحقيق ذلك شنوا عدة حروب دامية، لكنهم لم يحرزوا فيها نجاحاً كبيراً. وفي السنة الثامنة لبعثة الرسول (ص) هاجم الساسانيون الدولة البيزنطية، واستولت جيوشهم على بلاد الشام وفلسطين ومصر، كما توغلت في آسيا الصغرى حتى اقتربت من القسطنطينية. غير أن هرقل، وكان حاكماً على تونس، تقدم إلى القسطنطينية وأعلن نفسه امبراطوراً، ثم قاد حملة سريعة تفلتت من شرق آسيا الصغرى إلى طيسفون عاصمة الساسانيين، فشرابان التي تبعد حوالي ٧٠ كيلومتراً عن العاصمة. واضطر الساسانيون إلى ترك البلاد التي فتحوها وسحب جيوشهم للدفاع عن عاصمتهم. وبذلك أنقذ هرقل الدولة البيزنطية من الانهيار.

ثم حاول هرقل معالجة العلاقات الدينية، فابتدع عقيدة تجمع آراء مختلف الفرق المسيحية، لعلهم يجتمعون عليها. ولكنهم عملياً عارضوها جميعاً، فزادت في فرقتهم بدل أن تتجمع في توحيدهم.

كان الساسانيون الخطر الرئيسي الذي يهدد بلاد الدولة البيزنطية في آسيا، وكانت معظم حملاتهم تتقدم من منطقة الجزيرة الفراتية إلى إنطاكية، أو تتجه جنوباً إلى دمشق، ولذلك عني البيزنطيون بتنظيم دفاعاتهم في الجزيرة الفراتية وشمال بلاد الشام. أما الأطراف الجنوبية الشرقية المشرفة على البادية فلم يتوقعوا منها خطراً مهنّداً، لذلك اكتفوا بإقامة نقاط مراقبة متباعدة، في كلٍّ منها قوة عسكرية صغيرة، معتمدين على علاقاتهم الوثيقة بالقبائل المقيمة في بادية الشام، وعلى دولة الغساسنة التي ساندوها وثبتوا معها علاقات وثيقة فأمنت لهم هذه الحدود، غير أن هذه العلاقات ضعفت قبيل تقدّم الجيوش الإسلامية، ولعل توغل الجيوش الساسانية في بلاد الشام وفلسطين هو الذي وضع دولة

الغساسنة، فلما استعاد هرقل سيطرته على هذه الأقاليم كان جلُّ اعتماده على حسن علاقته بالعشائر العربية، وخصوصاً المقيمة في الأطراف الجنوبية من بلاد الشام وفلسطين والأردن. وعلى الرغم من تأخر اسلام هذه العشائر، فإنها لم تندفع في مساندة الروم، فلما تقدمت الحملة الإسلامية على مؤتة كان الحاكم البيزنطي هو الذي تصدى لها، ولا بدُّ أنه اعتمد على جيشه الرومي في التصدي. وبذلك كانت الحدود الشرقية والجنوبية للدولة غير محكمة التحصين ومكشوفة لتقدم الجيوش الإسلامية.

أخذ هرقل موقف الدفاع أمام تقدم الجيوش الإسلامية، ولم يحاول استغلال حركات الردة والانشقاق لتحدي دولة الإسلام، كما أنه لم يقم بهجوم عليها وينقل المعركة إلى أراضيها كالذي فعله مع الساسانيين عندما قاد حملة توغلت في بلادهم وهددت عاصمتهم.

ثم إن هرقل لم يقم بنفسه في إدارة المعارك مع المسلمين، وإنما اتخذ مقره في مدن بعيدة عن ميدان المعركة، وكان يعين قادة من المتصلين به لمواجهة العرب.

كما اختار للمعارك ضد العرب مناطق زراعية تقيّد المناورة وتعيق الانسحاب وتعرض جيشهم للتطويق والإفناء. واعتمد على مقاومة المدن التي كان أكثرها محصناً، إلا أن ولاء أهلها له لم يكن مضموناً. والواقع أن معظمهم كانوا من أرومة عربية، ممن يعتنقون المذهب البعقوبي المخالف للمذهب الذي يتبناه، وفيهم عدد من اليهود أيضاً، ولما كانت نفقات جيوشه قد أرهقتهم، لم يتحمسوا لمقاومة العرب، واستسلمت المدن للمسلمين بعد حصار قصير لم يبذل أهلها خلاله مقاومة عنيدة.

وتجدر الإشارة إلى أن المعارك الكبيرة التي قادت إلى فتح بلاد الشام حدثت كلها في أشهر الدفء التي تعودها العرب، ولم تحدث أيٌّ منها في أشهر البرد التي ربما لم تكن تلائمهم.

العرب في جزيرتهم

كانت شبه جزيرة العرب، بحكم موقعها الجغرافي، تقع بين دولتي الفرس والروم، لا تفصلها عن أيّ منهما حواجز جغرافية معرقة، وهذا ما يسهل اتصالاتها بهما، فكانت القوافل تسلك الطرق المتعددة التي تخترق شبه الجزيرة إلى كلتا الدولتين، كما كان التجار والمبشرون النصارى منهما يتغلغلون فيها. وقد حاولت كل من هاتين الدولتين أن تكون مع أهل شبه جزيرة العرب علاقات سياسية مباشرة أو بواسطة دولتي المناذرة والفساسنة اللتين والت كل منهما إحدى الدولتين. غير أن هذه العلاقات لم تصل إلى الحد الذي يجعل أيّاً منهما يحكم شبه جزيرة العرب حكماً مباشراً، اللهم إلا مناطق محدودة في أطراف شبه الجزيرة، كالبحرين واليمن، اللتين كانت الدولة الساسانية قد سيطرت عليهما سيطرة ضعيفة محدودة الأثر ولمدة قصيرة من الزمن.

وظلت شبه جزيرة العرب بعيدة عن السيطرة الأجنبية المباشرة، ولم تؤد اتصالاتها المتعددة إلى أن يكون للمؤثرات الأجنبية فيها تأثير واسع أو عميق. والواقع أن أثر شبه الجزيرة في الأقاليم المجاورة التابعة للفرس والروم كان أظهر وأقوى من أثر هاتين الدولتين فيها، حيث إن الهجرات الفردية والجماعية، والاتصالات المستمرة جعلت تلك الأقاليم سامية الجنس، عربية اللغة، وجعلت ثقافة الفرس والروم أجنبية منعزلة فيها.

لقد ربطت أهل شبه جزيرة العرب لغة عربية واحدة فصحي وعامة تعبر عن ثقافة غنية، فضلاً عما كان لهم من نظم وعادات ومثل اجتماعية ترجع إلى أزمنة سحيقة وتستند إلى أصول عرقية خالصة نظراً لقلّة هجرات الأجانب إلى شبه الجزيرة.

غير أن شبه جزيرة العرب عند ظهور الإسلام كانت تفترق إلى دولة واحدة تجمع أهلها وتهيمن على حكمها وتنظم إدارتها. لذلك كانت مفككة سياسياً، كما أن الحياة الاقتصادية فيها لم تكن مزدهرة، ما عدا بعض المدن والواحات المتفرقة^(١).

(١) انظر تفاصيل أرفى في كتابنا «تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية».

لقد أدى فقدان السلطة المركزية العامة، وقلة الموارد الاقتصادية إلى اضطراب الأمن وتزايد أخطار الغزو، وهذا ما دفع بالسكان إلى التدريب على القتال، والحروب. كما أن شظف العيش فيها جعلهم مدربين على تحمل المشاق وعلى الاكتفاء بالغذاء القليل، كما أن نظرف مناخ الجزيرة درّهم على القتال في مختلف أنواع الأراضي والمناخات، ولم يكن يعمقهم إلا الجبال والثلوج التي لم يكونوا قد تعودوا القتال فيها.

أسلحة العرب

لم تكن الدولة في أول الإسلام تصنع السلاح ولم تكن تزود مقاتلتها به، فكان كل مقاتل يجهز نفسه بما يحتاجه من سلاح مما كان يتوافر فيها، ولذلك كانت أسلحتهم تتنوع بتنوع أحوال شبه الجزيرة.

كانت السيوف من أهم الأسلحة، وكانت متنوعة، بعضها مما يصنع في شبه الجزيرة وبعضها مما يستورد من الخارج، وقد اشتهرت من سيوفهم السيوف اليمنية، والهندية، والمشرقية، والدمشقية، والحيفية. أما الرماح فكانت أغلبها من الخيزران، وكثير منها مما يستورد قصبه من الهند.

ذكر الجاحظ وصفاً لأسلحة العرب بالمقارنة مع أسلحة الفرس فقال «إنما كانت رماحكم من مران، وأستكم من قرون البقر، وكنتم تركبون الخيل في الحرب أعراء، فإذا كان الفرس ذا سرج فسرجه رحاله من آدم، ولم يكن ذا ركاب.. وكان فارسهم يطعمن بالقناة الصماء، وقد علمنا أن الجوفاء أخف حملاً وأشد طعنة، ويفخرون بطول القناة.. ويفخرون بطول الرمح وقصر السيف، وكنتم تتخذون للقناة زجاً وسناناً.. وكنتم تسافدون في الحرب، وكنتم لا تقتلون بالليل ولا تعرفون الليات ولا الكمين ولا الميمنة ولا الميسرة ولا القلب ولا الجناح ولا الساقة ولا الطليعة ولا الدراجة، ولا تعرفون من الحرب الرتيلة ولا العرادة ولا المجانيق ولا الدبابات ولا الخنادق ولا الحسك ولا تعرفون الأقبية ولا السراويلات ولا تعليق السيوف، ولا الطبول، ولا البنود،

الفصل الثاني

دوافع الفتوح

ماهية الدوافع

نقصد بدوافع الفتوح المؤثرات والقوى التي تدفع الأفراد أو الدول للتحرك والقيام بالفتوح، وهذه الدوافع تتعدد وتتنوع وتعمل على دفع الأمة وأفرادها للتحرك، إلا أن محركها يتطلب أحوالاً غير الدوافع، فسوء الأحوال الاقتصادية في مجتمع ما يعيش قرب مجتمع ينعم بالثروة لا يكفي أن يكون وحده دافعاً محرّكاً. والواقع أن كثيراً من المجتمعات ظلت أمدأ طويلاً في حالة مزرية من الفقر مستكينة قانعة بوضعها دون أن نحاول تبديله. ولا يصحّ اعتبار الثروة العظيمة والرخاء الذي أعقب الفتوح دليلاً على أن الفتوح الإسلامية حدثت بدافع اقتصادي لأن الذين قاموا بها لم يكونوا يدركون النتائج الكبيرة التي أحدثتها تلك الفتوح.

ودراستنا للدوافع ما هي إلا دراسة استنتاجية، لأن كتب التاريخ التي لم تذكر إلا الحوادث والتطورات دون أن تذكر الدوافع التي لم يصلنا عنها إلا نصوص قليلة منوعة وملاحظات عابرة متباينة.

ولا بدّ أن الفتوحات الإسلامية، شأنها شأن كل الحركات الكبيرة في التاريخ، كانت لها مؤشرات متعددة يمكن إدراكها بالمقارنة مع مثيلاتها في المجتمعات الأخرى. ولا يكفي في التاريخ تعداد العوامل المؤثرة فحسب، بل ينبغي تقييم هذه العوامل وتقدير الأهم منها. وهذا التقييم يعتمد على رأي

المؤرخ وحُكْمِهِ، ويتصل بالفلسفات العامة التي يرتبط كثير منها بالعقائد السياسية، لذلك كان مثار نقاش وجدل، وخصوصاً أنه قائم على التأصل والاستنتاج أكثر من اعتماده على ما دونه الأحيار التي في كثير منها تناقض وتحيز، ويقتصر على وصف الظاهر دون الإمعان في الكوامن وحقائقها. والواقع أن تفسيرات متعددة لمجرى التاريخ صاعها وعرضها الفلاسفة وعلماء النفس، وحاول بعض المؤرخين تطبيقها، غير أن هذه التفسيرات جاءت متعددة ومتناقضة، ولم ترتفع إلى مستوى العلم الثابت، لا سيما أن علم النفس الذي يتوقف عليه البت في هذه الأمور لما يزل غير مكتمل.

ومن المعلوم أن التاريخ يدرس التبدلات، ويهتم بإبراز محاولات الإنسان الحروح عن حالة الركود والخسوع لمطبيعة، وقلما يعرض دوافعه لتلك المحاولات

ومن الصعوبات التي تواجه الباحث في تحديد دوافع المتنوح تقرير الجهة التي كان لدوافعها أقوى الأثر في توجيه الحوادث، فمن المعلوم أن التاريخ يدرس نشاط الإنسان الذي يعيش في المجتمع، غير أن الناس يتنوعون كثيراً، ودوافعهم الفردية تتنوع بتنوع عقلية وأحوال كل منهم، ولا بد أن عيشهم ضمن الجماعة يوجههم نحو سلوك جمعي يتسم بطابع خاص واتجاهات عامة، وقد يطنى على أحوالهم وتوجهاتهم الفردية.

ولكل حركة تاريخية كبيرة هيئة حاكمة ترسم أهدافها وتنظم نشاطات الأفراد والجماعات، وتدفعها للتحرك نحو الجهة التي تريدها. وبذلك يتوجه السلوك الفردي والجماعي نحو الهدف الذي ترسمه الهيئة الحاكمة.

نظريات في الدوافع

ازداد الاهتمام في الأزمنة الحديثة بدراسة العوامل المؤثرة في سير التاريخ، وظهرت في الموضوع دراسات متتالية، اقتصرت مدتهاً أن الأحداث التاريخية بالرغم من تنوعها، فإن فيها اتجاهات عامة تنظمها وتعبّر عن سيرها، فهي

كالقوانين الجبرية التي تنظم سَير البشرية، ولكنهم اختلفوا في القوة الرئيسة الموجهة لسَير الأحداث، فمنهم من رَدّها إلى العوامل العرقية، ومنهم من عزّاها إلى العوامل الجغرافية، أو الاقتصادية، أو الدينية. وقد حاول أغلب هؤلاء المفكرين إرجاع سَير التاريخ إلى عامل وحيد أو رئيس.

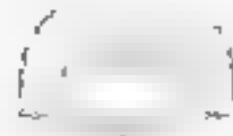
إن النظريات والآراء المتعلقة بتفسير التاريخ أو تقرير العوامل المؤثرة في مجراه تكوّن شطراً كبيراً من الأبحاث التي ندعوها فلسفة التاريخ. وأن اعتبارها فلسفة هو مظهر من اعتمادها على التأمل والشعور دون التجارب والاختبارات التي هي الأساس المميّز للعلم، فهي آراء مثيرة ولكنها لم ترق إلى مستوى الحقائق المثبتة، فهي أدخل في الفلسفة منها في العلم لأنها قائمة على دراسة سلوك الإنسان وأعماله؛ وميدانها علم النفس وهو علم حديث نسبياً لما تكتمل بحوثه لعوامل متعددة، أبرزها صعوبة دراسة تكوين اللاشعور ودوره الذي له أثر فعال في تقرير سلوك الفرد وردود فعله.

حاول بعض علماء النفس المحدثين إرجاع سلوك الفرد إلى عامل واحد رئيس، ولكنهم اختلفوا في تقرير ذلك العامل، فيرى فرويد وأتباعه أن العريضة الجنسية هي القوة الرئيسة التي تؤثر في سلوك الإنسان والمجتمع، ويرى أدلر أن حب السلطة والاعتزاز بالقوة هما الدافع الأكبر الموجه لسلوك الفرد، بينما يرى يونغ أن حب السلطة هو القوة الرئيسة المسيّرة للإنسان. وكل من هذه النظريات وما يماثلها تدخل اللاشعور في حساب دراساتها، وترجع سلوك الإنسان إلى عامل واحد.

والواقع أن سلوك الأفراد يتأثر بعوامل متعددة، ولكل فرد غرائز وميول متعددة، ومن الخطأ القول بأن سلوك الفرد يرجع إلى عامل واحد، فالإنسان يخضع إلى دوافع متعددة وقد يتصرف الفرد بسلوك معين في وقت معين متأثراً بعامل معين يختلف عن العامل الذي يؤثر في سلوك آخر. وقد تشترك عدة دوافع في تقرير سلوك ما، الأمر الذي يتطلب تقدير الأهمية الحقيقية والدور الصحيح لكل من هذه العوامل.

إن دراسة العوامل المؤثرة في سير الأحداث التاريخية، ومنها أحداث التاريخ الإسلامي، لا تزال دراسة تأملية فلسفية قُلِّمت عنها نظريات قابلة للنقاش ولما تصل مرحلة الجرم بعد، ولكن يمكن التأكيد على أن لكل حدث عوامل متعددة، وأن من مقاييس نصح البحث مراعاة مختلف العوامل، مع تقدير دقيق لقيمة كل عامل وأثره في التوجيه العام.

إن موضوع تفسير التاريخ وبيان علل ودوافع حوادثه لما تُستوفى دراستهما بعد، إذ إن الأقدمين اهتموا بسرد الحوادث فقدّموا عنها معلومات وافية اعتمدها المحدثون في دراسات نقدية عميقة، أما علل الحوادث ودوافعها فقد قصر القدماء فيها على إبداء ملاحظات عسرة وأفكار متناثرة تصلح أن تكون مادة أولية للباحثين. ولم يكتب أحد منهم بحثاً شاملاً متماسكاً في الموضوع غير أن خلدون في مقدمته الرائعة.



دوافع الفتوح الإسلامية

تطرق عدد غير قليل من المحدثين إلى بحث دوافع أحداث التاريخ الإسلامي أو بعضها، ومنها دوافع الفتوح الإسلامية. بعض هذه البحوث التي قام بها كتاب مهتمون بدراسة العقائد والاتجاهات السياسية، اتسمت بفرض آرائهم على تاريخ الإسلام دون أن تكون ناجمة عن اطلاع شامل على أحداث التاريخ واستنباط دوافعها.

وعرض بعض المستشرقين أفكاراً عن علل الأحداث، تميّز فيها اتجاهان رئيسان في تفسير دوافع الفتوح الإسلامية، أولهما: التفسير الاقتصادي، وثانيهما: التفسير الديني^(١).

الدافع الاقتصادي

كان أبرز من أكد على الدافع الاقتصادي في الفتوح الإسلامية كارل بيكر وليون كايثاني، فأما بيكر فقد عرض رأيه باقتصاب في الفصل الذي كتبه عن الفتوح الإسلامية وخلاصة رأيه: أن الفتوح الإسلامية أدت إلى السيادة السياسية للعرب فحسب، إذ إن العرب لم يجسروا أحداً على اعتناق الإسلام، واكتفوا بأخذ الجزية ممن لا يريد اعتناقه، وأن الدافع العربي لم يكن مفاجئاً، إذ إن الهجرات العربية من الجزيرة إلى الأقاليم المجاورة كانت قائمة منذ أزمنة قديمة، وكان مردّها إلى التدهور الاقتصادي الذي كانت تعانيه جزيرة العرب، وأن الدافع الحقيقي للفتوح كان الجوع والحاجة، أما الدين الإسلامي فقد خلق حماساً في المقاتلة وتنظيماً للحركة، وتوحيداً في إدارتها وأسند رأيه إلى عدد من النصوص التي وردت في بعض كتب التاريخ العربية، منها ما ذكره البلاذري أن أبا بكر بعد أن قضى على حركات البركة وهزم على توجيه الجيوش إلى الشام «كتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بسجد والحجّاج يستنفرهم للجهاد ويرغهم فيه وفي هتائم الروم وأسرع الناس إليه بين محتسب وطامع، وأتوا المدينة من كل أوب»^(١) ويروي الأهدل أن أبا بكر كتب إلى أهل اليمن يستنفرهم وكان مما كتب إليهم «ساروا عباد الله إلى فريضة ربكم وإلى إحدى الحُسَيْنَيْن: إما الشهادة وإما الفتح الغنيمة»^(٢). ويذكر الطبري أنه عندما عزم عمر بن الخطاب على فتح العراق وتردّد الناس في التوجه إلى العراق «قلم يزل بهم ويأبون عليه حتى عزم على ذلك وجعل لهم ربع خمس ما أفاء الله على المسلمين إلى نصيبهم من الفياء». ويروي الطبري أيضاً أن رستم قال للمغيرة بن شعبه قيل نشوب معركة القادسية «قد علمت أنه لم يحملكم على ما خضتم إلا ما أصابكم من العهد في بلادكم»^(٣)، فأجابه المغيرة «وأما

(١) فتوح البلدان ١٠٧، معجم البلدان لياقوت ٥١٥، ٢.

(٢) الأحوال ١٠٧، الوثائق السياسية ٣٠٢.

(٣) الطبري ٢١٨٦/١.

الذي ذكرته فيما من سوء الحال وصيق المعيشة وأخلاق القلوب فنحن نعرفه
ولسنا ننكره»^(١).

ويلاحظ أن معظم من انضم إلى جيش الفتوح في خلافة أبي بكر هم من
أسلم بعد الفتح، أي إهم لم تكرر لهم صلة سابقة بالرسول (ص)، أما في
خلافة عمر فقد انضمت أعداد كبيرة ممن كانوا قد ارتدوا إبان خلافة أبي بكر.

أما كابتاني^(٢) فقد قدم أوسع شرح لدافع الاقتصادي في الفتوح الإسلامية؛
وخلصه رآه أن الجزيرة العربية كانت في العصور الجيولوجية الحديثة منطقة
خصبة، فيها أمطار غزيرة وأنهار كثيرة ومراعي واسعة، وأن وديانها الكبيرة،
كوادي حوران، ووادي سرحان، ووادي الرمة، ووادي الدواسر كانت مجاري
أنهار غزيرة المياه يصب بعضها في نهر الفرات وبعضها في الخليج العربي وأن
جنة عدن كانت في جزيرة العرب

ويورد كابتاني نصوصاً كثيرة من المصادر القديمة تذكر ما كان في بعض
مناطق الجزيرة العربية من دس (وحبوانات) نهريّة، وما كان فيها من مياه
ومزروعات، ولا سيما في اليمامة، وتذكر هذه النصوص أن مئات القرى كانت
في فلسطين والأردن والحجاز.

ويشير كابتاني أيضاً إلى أن النقوش المصرية تذكر أن تحوتمس الثالث قام
باصطياد الفيلة في شمال بلاد الشام، وأن النقوش الآشورية تذكر أن بعض
الملوك الآشوريين كانوا يصيدون الفيلة في جبال لبنان وفي حرّان التي تقع في
أعالي الفرات. هذا بالإضافة إلى كثرة ضروب الأسود في النقوش الآشورية والتي
تدل على كثرة تواجد هذا الحيوان في شمال العراق زمن الآشوريين. ولا بد أن
هذا يدل على أن المناخ في تلك المنطقة كان، آنذاك، مناخاً ممطراً، وأن
الزراعة كانت كثيفة، في حين أن هذه المنطقة اليوم قليلة الأمطار والمزروعات،
وخالية من تلك الحيوانات.

(١) الطبري ٢٢٧٩/١.

(٢) عرض كابتاني أفكاره في كتابه *Annali Del Islam* وكلث في كتاب *Studi della Storia Orientali*.

ويقول كايثاني إن المناطق العربية من الحجاز كانت غنية بالمزارع، أهلة بالسكان، وإن الغابات والمزارع كانت تعطي معظم أراضي الحجاز وإن سكانه كانوا أربعة أضعاف ما هم عليه اليوم، وأن وادي القرى كانت فيه عشرات القرى المأهولة.

ويرى كايثاني أن جزيرة العرب بدأت تتعرض لتبدلات كبيرة في المناخ، فقلت أمطارها، وشحّت مياهها، وتناقصت مراعيها، وانخفضت مواردها، فلم تعد تكفي لإعاشة أهلها الذين أخذوا يهاجرون بسبب الفاقة والجوع إلى الأقاليم الغنية المجاورة. وقد بدأت هذه الهجرات منذ آلاف السنين، وكان بعضها محدوداً، وبعضها واسع النطاق، وأدت هذه الهجرات إلى جعل الأقاليم المجاورة للجزيرة عربية في لغتها وثقافتها وهي كثير من مظاهر حياتها

غير أنه منذ القرن الخامس قبل الميلاد ظهرت في الأقاليم المجاورة للجزيرة العربية إمبراطوريات قوية سيطرت على الحدود وقبّلت الهجرات إليها، فأنحصر العرب في جريرتها وتناقصت مصاعب الحياة فيهم وزاد شقاؤهم، وفي خلال ذلك ترايد الجفاف في الجزيرة وتناقصت مواد المعيشة. ثم كوّن العرب في أطراف العراق وبلاد الشام دولاً مستقرة أقامت علاقات طيبة مع الإمبراطوريات التي تحكم العراق والشام والتي عملت بدورها على استغلال هذه الدول في تأمين سيطرتها على الحدود ومنع تجاوزات أهل الجزيرة على تلك الأقاليم، وهذا ما حدّ من هجرات العرب. غير أن هذه الدول العربية أزيلت قبل الإسلام، ورافق زوالها ضعف العرس والروم وتناقص مواردهما فلم تعد لأيّ منهما الأموال الكافية لصرفها على ما يضمن تأمين الحدود، وعلى أثر هذا ازدادت تحركات القبائل العربية وتجاوزاتها على حدود تينك الإمبراطوريتين.

في هذه الأحوال ظهر الإسلام في مكة ثم اتخذ مركزه في المدينة، وكلاهما مركز حضري، غير أن الرسول (ص) استطاع بعد جهود كبيرة ضمّ العرب إلى الإسلام وتوحيدهم في ظل دولته، وبذلك جلبوا إلى الإسلام

حيويتهم ونشاطهم، ولكنهم لم يتفهموا المبادئ التي كان يدعو إليها الرسول (ص)، ولم يتشبعوا بروح الإسلام، بدليل أنهم سرعان ما ارتدوا بعد وفاة الرسول، ولم تنم عودتهم إلى الإسلام إلا بعد أن استعمل أبو بكر القوة لإعادةتهم إلى حضيرة الدولة الإسلامية، فكوّنوا بعد ذلك عظم الجيوش الإسلامية التي قامت بالفتوح، ونجحت بمصل حيويتهم وحماسهم، وقد عاونهم إخوانهم العرب القاطنون في أطراف دولتي الفرس والروم. واستطاعوا بعد انتصاراتهم الرائعة عليهما أن يزيلوا معظم الأديان التي كانت سائدة في السابق، ويحلّوا الإسلام محلها، كما أشأوا نظاماً مستقراً ازدهرت فيه الحضارة والفكر.

لقيت نظريات كايثاني قولاً عند عدد من المستشرقين، غير أن عدداً من العلماء أخذ على كايثاني عدم دقته في بعض المعلومات التي أوردها، وانتقد آخرون الأحكام التي استنبطها. ومن أبرز من انتقده الرحالة الكواموريل الذي أخذ على كايثاني أخطاءه في تثبيت المواقع المحصنة في الجزيرة واعتباره منطقة النفوذ منطقة جرداء تسفوها العواصف الرملية، ومبالغته في وصف بعض الأماكن، كمسقة بطراء، ووادي القرى، والبحرين، بأنها جرداء.

ومما أحذه موزيل على كايثاني أنه عرا انهيار سد مأرب وغيره من سدود اليمن إلى تبدل المناخ وأنه بالغ في أثر هذا الانهيار على الهجرات العربية. ويرى موزيل أن جزيرة العرب لم تكن في حالة الإجداب التي صوّرها كايثاني وأن هيمنة دولتي الفرس والروم لم تكمل العرب، بل ظلوا محتفظين بدورهم في التجارة العالمية التي كانت تدور عليهم أرباحاً وتوفر لهم العيش، وكذلك الواحات الواسعة العنية في الجزيرة التي كانت تموّن معظم سكان الجزيرة بالمواد الغذائية

ويرى موزيل أن الجزيرة لم تكن تعاني العاقبة ولكنها كانت تفتقد حكومة قوية بعيدة النظر، كما أنها لم تفتقد السات، إذ كان فيها مراعي واسعة ومزارع حول الآبار الكثيرة

وقدم هنري لامنس في كتابه بالفرنسية «مهد الإسلام» وفي كتابه عن الطائفة معلومات واسعة عن الازدهار الزراعي في الحجاز عند ظهور الإسلام؛ وقد عرضت في بحثي عن الزراعة في منطقة المدينة معلومات غير قليلة عن مناطق الزراعة في أطراف المدينة لا بد أن أصول كثير منها ترجع إلى ما قبل الإسلام.

ويلاحظ أن أهل اليمن شكّلوا نسبة ملحوظة من الحيوث الإسلامية منذ زمن خلافة أبي بكر، ولا يوجد ما يدل على أن الأحوال الزراعية في اليمن كانت آنذاك متدهورة، علماً بأن كثيراً من هؤلاء المقاتلة القادمين من اليمن كان كثير منهم من جند الأذواء، ومدرّبين على القتال بأساليب تختلف عن أساليب غارات البدو.

الدافع الديني في الفتوح الإسلامية

نقصد بالدافع الديني مدى دور الدين الإسلامي في تنظيم وتوجيه ودفع العرب للقيام بالفتوح. ومن المعلوم أن العرب كانوا قبل ظهور الإسلام قبائل مفككة يقاتل بعضهم بعضاً، ويقومون بالعرو والغارات على بعضهم دون هدف واضح أو غاية بعيدة، الأمر الذي أزعجهم واستنزف قواهم وأبقاهم مفكّكين. فلما جاء الإسلام نظّمهم جميعاً في طاعة وأخضعهم لسلطة مركزية واحدة لا تقرّ الغزو أو القتال بين القبائل، وقد نسّق الإسلام قوات العرب ووجّها نحو غاية واحدة هي التقدم نحو الخارج، فكان العامل الأكبر في استخدام الطاقة الهائلة للعرب ضد الدول الحارّجية.

ثم إن الإسلام وضع للحروب عاية سامية، فلم تعد مجرد غزوات للحصول على مغانم مادية وقتية، بل أصبحت فتوحاً لإعلاء كلمة الإسلام والدين، وهي غاية سامية تخص المصلحة العامة للجميع وليس لمصلحة فرد معين، وهي غاية بعيدة.

ثم إن فكرة الآخرة التي أكد عليها الإسلام كانت تدفع الناس إلى الانخراط

في القتال والصمود في الحرب وعدم تهيب الموت، لأن الذين يُقتلون في سبيل الله يذهبون إلى الجنة وهم ﴿أَحْيَاكَ عِنْدَ رَبِّهِمْ بِذَقُونِ﴾ [آل عمران]، هذا فضلاً عن أن الاعتقاد بالله الواحد الحق المؤيد للمسلمين بنصره والحامي لدينه، من شأنه أن يزيد الثقة في قلوب المحاربين ويقوّي معوياتهم.

وتتجلى قوة الدافع الديني في الفتوح، في الرسائل التي وجهها الخليفة أبو بكر لدعوة الناس إلى المشاركة في الفتوح من أجل إعلاء كلمة الله. ومن المعلوم أن الخلفاء الأولين تشعّروا بأراء الرسول (ص) وتابعوا سياسته التي كانت تهدف إلى نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله، وليس الحصول على مغانم مادية، ومظهر ذلك أنه لم يهتم كثيراً في الجباية، ولم تصله موارد كبيرة بعد توسع الدولة الإسلامية، وكذلك الأمر في خلافة أبي بكر، فلو كان غرضه الحصول على المغانم لكانت الجباية أوسع بكثير مما كانت عليه في الواقع.



دوافع المقاتلة العرب

إن دراسة دوافع الأفراد المقاتلة المشاركين في الفتوح دراسة غير يسيرة، وذلك لكثرة عدد المقاتلة وتنوع المناطق التي قِيموا منها من جريدة العرب واختلاف أحوالهم ونُظُمهم باختلاف أحوال المناطق وحدثة عهد معظمهم بالإسلام، وقصر الوقت الذي مضى على اعتناقهم الإسلام وانضمامهم إلى الجيوش وتوجههم رأساً إلى ميادين القتال دون أن يمروا بمرحلة توجيهية. وقد ترسّخت هذه السُمة عندما سمح عمر بن الخطاب للمرتدين بالانضمام إلى الجيش الإسلامي، مما قوى حجة القائلين بأن الدافع الرئيس للفتوح كان الحصول على الغنائم، حيث أصبح معظم الجيش الإسلامي مكوناً من السلو الذين أسلموا مؤخراً وكانوا قد أُلِموا استهداف الغنائم من الحرب. ومن الأدلة التي استند إليها هؤلاء الدارسون أن الإسلام يقرّ لدمتصر الحصول على الغنائم التي تُوزَّع على المقاتلة، وكذلك ذكر الكتاب نصراً دعى فيها الخلفاء الأولون، القبائل إلى المشاركة في الفتوح ومتوهم بما سيحصلون عليه من الغنائم.

غير أنه يجب أن نلاحظ إلى جانب حداثة إسلام البدو الذين كوّنوا معظم جيش الفتوح، أن روح الجماعة، وسيكولوجية المجموع، تدفعان كثيراً منهم إلى الحماس في القتال بدافع من هذه الروح ولغرض إظهار البطولة والشجاعة بصرف النظر عن أي دافع آخر، فالدوافع الملتهبة، ونزعة حب القتال في الجند هي أقوى من إذكاء الحماس في الأمل بالحصول على الغنائم.

دوافع القيادة العليا الموجهة

عند دراسة الحركات العامة ودوافعها ينبغي أن نولي أهمية خاصة لموقف السلطات العليا الموجهة لهذه الحركات، لأنها القوة الكبرى التي تحرك الجيوش وتوجه الفتوح وتؤثر في حيق وتحريك روح الجماعة التي تطمح على الدوافع المردية المتعددة والمتشعبة، علماً بأن المصادر نقلت عن مواقفهم معلومات واسعة تيسر تكوين فكرة أوضح

ومن المعلوم أن القيادة العليا الإسلامية كانت تتجلى في الخليفة ومن يحيط به من الصحابة في المدينة^(١) ويشير لنا من خلال دراسة حياتهم قلة اهتمامهم بالمال وجمعه. فموارد الرسول والدولة الإسلامية في زمه كانت قليلة جداً^(٢)، وكذلك الحال في خلافة أبي بكر، علماً بأن الدولة كانت تشمل رقعة واسعة فيها مناطق غنية يؤدي استغلالها إلى جمع أموال أكثر بكثير مما تذكره المصادر وتؤيده الأحوال. ولو كان هدف الخلافة المال لكاسوا اهتماماً بإنشاء نظام لجمعه ولتشديدوا فيه ولحصلوا على أموال طائلة من خلال ذلك، وهو ما لم تذكره المصادر.

والواقع أن السمة السائدة للخلافة والصحابة كانت التوسع وتحرير البلاد الأخرى لتكوين دولة تكون فيها كلمة الله هي العليا ولجعل الإسلام يسودها بصرف النظر عن مدى انتشار الإسلام وعدد من يعتنقه.

(١) انظر الفصل الخاص بالمالية من كتابنا «الدولة في عهد الرسول (ص)»

وكان الطابع المميز للخلافة والصحابة اعتزارهم بالدين، وحماسهم لفكره وتمسكهم به باعتباره القوة الجامعة والرائدة القوية ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران] وقد خلق فيهم الدين ثقة هي المص، وإيماناً في العقيدة، وقوة مبعثة من إيمانهم بالحق، وقتالهم من أجل الحق، وأن الله العلي العظيم ناصرهم ومؤيدهم.

الفصل الثامن

بلاد الشام عند الفتح الإسلامي

الأرض

تكوّن بلاد الشام، وهي ما نسمّيه اليوم سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، الجناح العربي من الهلال الخصيب، وتحدّها من الشمال جبال طوروس التي تفصلها عن هضبة آسيا الصغرى، وتتصل أطرافها الشرقية ببادية الشام المكملّة لصحراء جزيرة العرب، ولا يوصلهما أيّ عارض جغرافي.

يحدّ بلاد الشام من الغرب البحر الأبيض المتوسط الذي يمتد على طول سواحلها الشرقية سهل ضيق خصب فيه كثير من المدن التي كانت مرافئ للملاحة، ومراكز للتجارة والصناعة. وقد كوّنّت معظم هذه المدن علاقات ملاحية وتجارية مع مختلف البلاد الواقعة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط كافة في أوروبا وإفريقية.

تخترق بلاد الشام من الشمال إلى الجنوب سلسلة جبال لبنان وهي موازية لساحل البحر الأبيض وقرية منه، وتفصل السهول الساحلية عن المناطق الداخلية وتعرقل المواصلات بينهما.

أما القسم الداخلي من بلاد الشام فأراضيّه متموجة، وفيه سهول واسعة أهمها مرج راهط، وسهل القنّاق والعوطة وسهول وادي الأردن. ويجري في

هذه المنطقة عدد من الأنهار، وأهمها نهر العاصي في الشمال، ونهر بردى في الوسط، ونهر الأردن في الجنوب. كما تعزر فيها الأمطار الشتوية، فتوفر المياه للزراعة التي ازدهرت منذ القديم، وخصوصاً أشجار الفاكهة والزيتون والكروم والخضروات.

المدن والصناعات والحياة الحضرية

ظهر في هذه السهول منذ أقدم الأرملة عدد غير قليل من المدن مثل حلب وحماه وحمص ودمشق وبلبيك وبصرى، وصارت هذه المدن مراكز لصناعات مهمة كالمنسوجات والأصباغ والزجاج والربيت والحمور والأسلحة، وكانت هذه المصنوعات في غاليتها تصدر إلى بلاد الأحرى، ومنها جزيرة العرب والحجاز الذي كان يستورد منها بصورة خاصة الربوت والحمور ومختلف أنواع السيوف ومنها المشرقية والدمشقية والصفائح المصرية. وقد أدى هذا إلى نمو الحياة الحضرية وقوة الطبقة الوسطى في بلاد الشام، وإلى ظهور نظام إداري محكم تكون نتيجة خيرات طويلة واستقر في هذه المدن التي أصبحت كل منها تتمتع باستقلال ذاتي كبير في إدارتها. ويبدو أن الضرائب المفروضة عليهم لم تكن كبيرة، فكانوا مرفهين اقتصادياً. ويلاحظ أن العرب عند فتحهم بلاد الشام عقدوا مع المدن معاهدات صلح تسري أحكام كل منها على المدينة المصالحة وما حولها، أما في العراق فلم تذكر مثل هذه المعاهدات مع المدن، باستثناء ما عقدوه مع أهل الحيرة وبناتقيا وألبس.

استولى الرومان على بلاد الشام وضموها إلى دولتهم في القرن الأول قبل الميلاد وأقاموا في بعض مدنها حاميات عسكرية، ولكنهم لم يفلحوا في تغيير أحوال أهلها، فظل أهلها من العرب محتفظين بلغتهم وعاداتهم وتقاليدهم، واستمروا يزاولون نشاطهم الاقتصادي في الزراعة والصناعة والتجارة، وأفادهم موقعهم الجغرافي فلم يتعرضوا لهجمات البرابرة، ولم تقلقهم الفتن والثورات

التي أضمت روما. ولما ظهر الدين المسيحي اعتنقه معظم أهل الشام^(١).

ولما انقسمت الدولة الرومانية إلى قسمين أصبحت بلاد الشام من أقاليم القسم الشرقي الذي كانت عاصمته القسطنطينية، ولكنهم ظلوا محتفظين بشاطهم الاقتصادي وبلغتهم وثقافتهم السامية وانتشرت بينهم من المسيحية مذاهب تخالف المذاهب التي اعتنقها أهل القسطنطينية.

ولم يتعرض القسم الشرقي إلى غزوات الجرمان الذين قضوا على القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية. وكان في الأطراف الغربية من القسم الشرقي البلقان والسلاف الذين يعكرون صفو الأمن في أملاكها في أوروبا بخاصة، ولكنهم لم يهددوا كيانها أما أطرافها الشمالية فكان البحر الأسود ولم يشكل سكان أطرافه الشمالية خطراً جدية على الدولة. وفي أطرافها الشرقية سلاسل جبلية شاهقة ومعقدة، فقدت قدرتها على تهديد الدولة بعد انقراض دولة الصدق^(٢).

وكان الخطر الأكبر الذي يهددها من القرصان الذين كانوا يطمحون إلى مد دولتهم إلى البحر الأبيض المتوسط، وقاموا بغزوات متقطعة كان آخرها ما حدث في أوائل سني البعثة، حيث استولوا على بلاد الشام ومصر، وتوغلت جيوشهم إلى أن قرئت من القسطنطينية، لكن هرقل قضى على تقدمهم، وأجبرهم على الانسحاب^(٣).

وقسم الرومان إدارة بلاد الشام إلى ثلاثة أقسام: أهل المدن والريف والأعراب.

(١) انظر كتاب «المدنية» للإعريقية لجوس، ترجمة إحسان عباس، وهو فصل عن مدن بلاد الشام من كتاب أوسع

(٢) لا تزال دراسات بيورف عن تطورات الأحوال في أواخر الدولة الرومانية، وفي الدولة البيزنطية من أوسع الدراسات رغم قدمها

(٣) انظر إيرو في عهد الساسانيين لكرستس، ترجمة يحيى الخشاب

تتصل بلاد الشام ببادية الشام وبأطراف الحجاز الشمالية ولا يفصلها أي من الحواجز الطبيعية، من سلاسل جبال أو أودية أو أنهار، لذلك فإن حدود الدولة كانت تمتد إلى مناطق تسكنها الجماعات التابعة للروم، فالحدود مرتبطة بالباس وممتدة إلى حيث امتدوا ومن هنا كانت هذه الحدود غير ثابتة المعالم.

وكان أكثر بلاد أهل الشام عرب في أرومتهم غير أن تطور الأحوال جعلت السكان أهل مدن وريف، فأما لمدن فإنها ورثت النظم الإغريقية والرومانية التي تتحدد فيها المدد بموجب القوانين، وتكون لها امتيازات ونظم تسير عليها في إدارتها؛ وقد أبهى المسلمون بعد توسع دولتهم ما كان للمدن من نظم، وفي هذا يذكر البلاذري «قال أبو يوسف إذا كان في البلاد سنة أعجمية فليس للإمام أن يعيها، وقال الشافعي بل يعيها إذا كانت صارة»^(١). والراجع أن المقصود بالسنة هنا النظم التي كانت تسير عليها المجتمعات المحلية، وأن القيد الذي رآه الشافعي عليها هو في حالة إضرارها بالباس أو بالدولة.

ويقول ابن عساکر «لا خلاف بين الأئمة من سلف هذه الأمة أن كل بلد صولح أهله على الخراج المعلوم أنه لا يجوز تعيير ما استقر عليه من الرسوم»^(٢).

وكانت القيود التي يروى أن عمر بن الخطاب فرضها على أهل المدن تتعلق باللبسة وبعض السلوك، وإنشاء الكدش وكل ما يتحدى عبادات المسلمين، وما يتعلق بملكيات الأراضي، ولم يرز ذكر في أي منها إلى طلب تبديل النظم، لهذا يمكن القول بأن المدن احتفظت بنظمها القديمة في تنظيماتها الإدارية، وأن التغيير الذي حدث فيها يرجع إلى التطورات السلمية الوثيدة التي حدثت فيها. ولعل من أبرز الاختلاف بين فتوح العراق وفتوح الشام هو أن العرب تعاملوا في بلاد الشام مع مدن وعقدو مع كثر منها معاهدات مفردة، وإن كانت نصوص الكثير منها متشابهة.

(١) شرح البلدان ٤٤٧

(٢) تاريخ دمشق ٥٧٥/١

كوّنت كل مدينة وحدة يعزّرها النظام الإداري المستقر على أسس التقاليد القانونية. ولا ريب في أن قوام الحياة فيها على التجارة والأنشطة المعاشية، وكذلك على ما فيها من متطلبات إدارية وعسكرية تميّزها من الريف والبدوة وأهل هذه المدن حضريون، غير مدربين عسكرياً، ولم تذكر في أيّ منها حاميات أقيمت أيام السلم. ولا بد أن أصول هؤلاء السكان قديمة ومرتبطة عرقياً بأهل جزيرة العرب، لكن ذلك لم يمنع وجود جاليات أجنبية أقيمت فيها بصورة دائمة أو مؤقتة لتمارس نشاطها التجاري والمالي في الأغلب، غير أن السمة الحصرية هي البارزة.

كما أن توجهاتهم الثقافية تختلف عن الدول الحاكمة التي يشيع فيها استعمال اللغة الإغريقية ولم تذكر المصادر تركيب سكان أيّ مدينة في بلاد الشام والجزيرة ما عدا بعلبك التي ذكرت معاهدتها مع أبي عبيدة أن أهلها هرب وروم وفرس^(١)



تفسر هذه الأوضاع كثيراً من مجريات حوادث فتح بلاد الشام، فالمعارك الرئيسية جرت في الأراضي الواسعة خارج المدن، وبعبدة من بعضها. والمدن التي ظهرت فيها مقاومة محدودة هي دمشق وقيسارية وحمص وبعض مدن الجزيرة، وقد اعتمد العرب في مقاومتهم هذه على القوات التي جلبت إليها من مناطق أخرى بسب ظروف القتال، أما الأهالي فلا تدل الأخبار على مشاركتهم في القتال، وكانوا أوثق صلة برجال الدين الذين قاوض كثير منهم العرب على الاستسلام وذكر البلاذري أن العرب حاربوا بصرى، وأن أهلها صالحوا العرب، وعلى مثل صالحها صالح أهل ماب^(٢) وهوران والبثينة وعُمان^(٣)، كما صالحوا أهل طبرية^(٤)، وفتحوا بيسان، وسوسية، وأهيق، وجرش وبيت راس،

(١) نظر نص المعاهدة في كتاب الوثائق السياسية في زمن الرسول (ص) والحلقة الراشدة لمحمد حميد الله ٥.

(٢) فتوح البلدان ١١٤.

(٣) فتوح البلدان ١٢٥.

(٤) فتوح البلدان ١١٥.

والقدس والجولان وعكا وصور وصفور^(١) وبابل وسبيت جبرين وإيليا^(٢) وحماه وشيزر وقيسارية. ويروي الأزدي أن أهل فعل قالوا للمسلمين عن الروم إن هؤلاء قد غلبونا على أمرنا وعلى مشاركتنا^(٣) وقال أهل حاصر قسرين، نحن عرب وقد حشرنا مع الروم ولم يكن من رأينا حربكم^(٤)

أما أهل الريف فلا بد أن غلبتهم، إن لم يكونوا كلهم، من أهل جزيرة العرب، غير أن استقرارهم وعملهم في الأرض باعد بين نظم حياتهم ونظم العشائر العربية التي كان أكثر مساكنها في الأطراف الخارجية لبلاد الشام، ونظمهم أقرب إلى نظم أهل البدو، وعلاقتهم بأهل البادية تتوقف على مدى قدرة السلطة المركزية على ضبطهم. فبدأت هذه السلطة ازدادت تجاوزاتهم على أهل الريف بحاصة، وإذا كانت السلطة المركزية مهمة فتقل التجاوزات، وكثيراً ما يستقر أهل البادية ويعملون في الزراعة فتحول حياتهم بشكل تدريجي.

أما الأطراف الشرقية والجنوبية من بلاد الشام فكانت متصلة بالصحراء، ومع أن فيها كثيراً من الآبار فإنها أقل من أن تكفي لازدهار رراحي واسع، لذلك قلت فيها المراعي والقرى وكان أكثر أهلها أعراباً تنسم حياتهم بما للبدوية من خصائص وأبرز هذه العشائر هي لحم وجدام وعسان وكان أكثرهم يدين بالنصرانية لذلك كثيراً ما كانوا يسموهم العرب المنصرة

عشائر بلاد الشام

لما كانت بلاد الشام متصلة في أطرافها الغربية بشمالي الحجاز وبيادية الشام، فإنها أصبحت مفتوحة على جزيرة العرب التي تملهم بالسكان منذ أقدم الأزمنة، واستقر كثير منهم في المناطق الرراعية والمدن فطؤروا بعض نظمهم

(١) فتح البلدان ١١٥.

(٢) فتح البلدان ١٣٧.

(٣) فتح البلدان ١٤٠.

(٤) الأزدي ١١١.

وحضارتهم تبعاً للمتطلبات الجديدة، ولكنهم احتفظوا بمظاهر العروبة في أسمائهم وأسماء مدنهم ولغتهم وما يتصل بها من ثقافة. أما البادية فيحتفظ أهلها بالنظم البدوية وكانوا يحبون حياة عشائر الجريرة ويعتمدون في معاشهم على منتوجات مواشيهم، وما تنتجه الأرض من شحيق الخيرات. وقد يكونون علاقات مع المدن القريبة منهم، وخصوصاً مع جماعاتهم التي تستوطن الريف والمدن، وقد يغيرون على أهل الريف، وخصوصاً عند ضعف هيمنة الدولة، وقد سمّتهم المصادر السريانية «طيبة» أو الطائيين وسمّتهم المصادر الرومانية المشركين^(١).

وأبرز العشائر العربية في أطراف بلاد الشام عند مجيء الإسلام كانت طي وتنوخ في الشمال عند قنسرين وحلب، والصجاعم وسليح في أطراف حماه، وكلب في الأطراف الغربية بين تدمر وحوران والقفوة حتى بصرى، وبلقين في حوران والبتونية، ولحم بين الرملة والحماة في جنوب فلسطين، وجدام بين اللقاء والأردن وتمتد إلى جبل (السمي على) طريق إيلة، وهو بين هزارة وجدام، ويلي في أطراف خليج العقبة وعُدرة بين الحجر ووادي القرى^(٢).

عملت الدول التي حكمت بلاد الشام على إقامة علاقات طيبة مع العرب من أهل البادية في أطراف الشام، وذلك لتأمين السلام في أطراف بلادها، وللإفادة منهم في صد الأخطار التي قد تهددها من هجمات أعدائها ولا سيما الفرس، وكانت تعمل على استرضاء رؤساء هذه العشائر، فساند البيزنطيون الفساسنة في إقامة دولة هيمنت على لعشائر المقيمة في بلاد الشام. والواقع أن الفساسنة شاركوا معهم في مقاتلة الفرس، ولا بد أن هذه المساندة أضعفتهم إبان سيطرة الفرس على بلاد الشام عندما خزوها لدى ظهور الإسلام، فلما استعاد الروم البلاد لم يعيدوا للفساسنة دولتهم، ولكنهم احتفظوا بعلاقات طيبة معهم.

(١) انظر كتاب «أديس» لسبحان، وملاحظات حول بعض حوادث العلاقات بين العرب والروم» لفازليف و«مدن سوريا الجنوبية بين العرب والروم، وطريق التجارة العالمية» لرودي باري.

(٢) انظر دوسو العرب في بلاد الشام قبل الإسلام (لترجمة العربية)، عبد الله التومهي، شمال الحجاز.

وانتشرت بين عرب الشام النصرانية التي كانت دين دولة الروم، لكن أكثرهم اعتنق اليعقوبية وهو مذهب يخالف معتقد الحكام الروم، وكان هذا من عوامل ضعف الصلة بينهم وبين الروم.

ثم إن النصرانية لم تتخلع في نفوس القبائل العربية، فكان أكثرها نصرانياً بالاسم والظاهر، ولذلك لم يكن للدين أثر قوي في توثيق روابطهم مع الروم، وكذلك لم يكونوا متحمسين في تأييد الروم ضد العرب المسلمين، وإنما انحاز كثير منهم إلى العرب المسلمين وقاتلوا الروم^(١).

تطلق المصادر العربية على عشائر بلاد الشام التي اعتنقت النصرانية «المستعربة»^(٢) و«عرب الروم»^(٣) و«عرب الصحابة» و«العرب المتنصرة»^(٤) وكانت مواقفهم العامة متطورة تبعاً للأحوال، فهم لم يمتنعوا في البداية من إبداء بعض التعاون مع الروم، غير أنهم بدأوا يتحللون عنهم ويميلون إلى المسلمين ثم قاتلوا مع المسلمين، وهذه المواقف العامة لم يكن يلتزم بها الأفراد كافة، كما أن أخبارها بقصورة على إسهامهم في قتال المسلمين بحسب، وكانت أبرز العشائر في أطراف الحجاز الشمالية حلزة وسعد هذيم وبلقي والقين.

وأول احتكاك للرسول (ص) بهذه العشائر حدث في السنة السادسة للهجرة لما بدأ يرسل السرايا إلى العشائر القاطنة في الأطراف الشمالية من الحجاز، لأن أفراداً منها اعتدوا على رسله أو على تجارات المسلمين، وفي الوقت نفسه قدمت الرسول (ص) أفراد من هذه العشائر ويمكن القول إن سلطة الإسلام في آخر حياة الرسول (ص) كانت مشنة على عشائر قصاعة، بما فيها بلقي وسعد هذيم وحلزة وكلها كانت تقطن الحجاز، وفي أطراف دولة الروم ولكنها ليست في الدولة.

(١) انظر مقال عبد القادر حريسات في وقائع المؤتمر الثاني لبلاد الشام

(٢) انظر مثلاً الطبري ٦١١/١، ٦١٧، فتوح سيبان ٨١٦٧؛ ابن أحنم ١١٢/١، ١٣٢.

(٣) الطبري ٢٠١٨/١

(٤) انظر ابن عساکر ٥٣١/١ ابن أحنم ١٢٤/١، ١٨٦، ٢٤٤

قاتل بعض العرب المنتصرة مع الروم في عزوة مؤتة التي كانت حملة موجهة ضد الروم، وقام بتنظيم صدهم ثيودور حاكم فلسطين وعاونه في مقاتلة المسلمين بعض العرب المستعمرة من لحم وجدام وبلقين وبهراء ويلي وكان قائدهم مالك بن رافلة^(١)، ووقع فيها كثير من القتلى من بني ثعلبة من حدس^(٢).

ولم تتصل القبائل العربية المنتصرة التي ديارها هي الأطراف الشمالية من البادية بالإسلام وذكر أنهم ساندوا أكيدر حاكم دومة في قتال المسلمين عندما أرادوا ضمها إلى دولتهم^(٣).

ولما تقدّم خالد بن سعيد بجيشه المتوجه إلى الأطراف الجنوبية الشرقية من الأردن صرب الروم البعوث على عرب الضاحية بالشام وجمعوا منهم جيشاً من بهراء وكلب وسليح وتوخ وحدام وغسان، واجتمعوا دون ريزاء بثلاث فرقهم خالد^(٤).

لم يرد ذكر مقاومة لهؤلاء المنتصرة لجيش عمرو بن العاص عندما توغل في فلسطين إلى أطراف عرة، ويروي ابن الأعمش أن أهل البلاد من نصارى العرب قد وعدوا الروم وصمموا لهم المعاونة، وشارك هؤلاء المنتصرة في القتال، غير أن أنباط الشام، وهم فلاحون، قاتلوا مع المسلمين الروم في معركة فعل، وكانوا أميل إلى المسلمين لبرّهم بهم وصلتهم إليهم، فكانوا فيوجأ للمسلمين وجواسيس^(٥). ويدل هذا الموقف السلمي لأهل المدن على أن الجيوش العربية لم تلق مقاومة من كل العرب المنتصرة.

تضعفت ثقة المنتصرة بالروم بعد أجناديين فانضم عدد منهم إلى العرب في

(١) الطبري ١/١٦١٢.

(٢) الطبري ١/١٦١٨.

(٣) الطبري ١/٢٠٦٥.

(٤) الطبري ١/٢٠٨١ ابن حاكم ١/٤٥١.

(٥) ابن أعمش ١/٢٩٨ تاريخ الأدي ١١٠.

معركة فحل^(١). وشاركوا في اليرموك وكان في ميمنة المسلمين عشائر اليمن «قضاة ولخم وجذام»^(٢). وأسلم كثير من المنتصرة وانضموا إلى المسلمين ومن أبرزهم أبو النضر زيد بن الأسود، وكان لهم شرف بالشام^(٣).

جبله بن الأيهم

الشخصية البارزة الوحيدة التي يتردد ذكرها عن المنتصرة المؤيدين للروم هو جبله بن الأيهم العسائي، وأول ذكر له في حوادث حصار المسلمين دومة الجندل حيث جاء «في طوائف من غسان وتنوخ» لمعاونة حاكمها الأكيدر ضد المسلمين، وقاتل جبله حياصاً فيها^(٤)، ولم يذكر أنه كان آنذاك ملكاً، مما يدل على أن دولة الغساسنة أزالها العرس عند غزاهم بلاد الشام، ولم يُعدها الروم لكن العلاقة ظلت طيبة بين العساسنة والروم.

وذكر ابن أعثم أنه قيل معركة اليرموك أقام «جبله بن الأيهم في العوطة من أرض دمشق في أربعين ألف من العرب المنتصرة»^(٥) ولكن لم يذكر له دوراً في المعارك الأولى قبل معركة اليرموك التي ذكرت المصادر دوره فيها، فذكر ابن إسحاق أن «أمداد اليرموك من المستعربة لخم وجذام وبلقيس وبنى وعامة وقضاة اثنا عشر ألفاً عليهم جبله»^(٦)، وأكثر هذه العشائر من بلاد فلسطين التي لم يمتد إليها سلطان الغساسنة، وقد يرجع هذا إلى أن هرقل حلبه إليه دون أن يعيد له سلطانه، وجعله على المقدمة^(٧).

(١) الأزدي: فتوح الشام ١١١، ١٣٤.

(٢) ابن أعثم ١/٢٢٥، الأزدي ٢٢٦ - ٧.

(٣) الأنساب لابن الكلبي ٣٦١/٢.

(٤) الطبري ١/٢٠٦٥ ويذكر حليمة أنه «يقول إن الرسول (ص) كتب له كتاباً، ويقال إنه كتب للهارث بن عمرو» (٦٣).

(٥) ابن أعثم ١/١٢٤.

(٦) الطبري ١/٢٠٤٧، ابن عساکر ١/٥٣١.

(٧) فتوح البلدان ١٣٤.

ثم تخلى جبلة عن الروم بعد اندحارهم في اليرموك، وانضم إلى المسلمين^(١)، وقدم إلى المدينة مع خمسمائة من قومه، وذهب إلى الحج، ثم استاء من قرار عمر أن يقتصر منه إنظيم مسلماً، فعاد إلى الشام وتنصر، وانسحب مع هرقل إلى بلاد الروم^(٢)، ويروي البلاذري أنه انسحب معه ثلاثون ألفاً علماً بأن المنسحبين الملحقين بهرقل كانوا من غسان وتنوخ وأباد، ولاحقهم المسلمون فقتلوا منهم مقتلة عظيمة^(٣).

-
- (١) ابن أعمش ١/١٧٠، ٢٤٠، ٣٠٢
 (٢) لأغاني ١٦٢/١٥ ويذكر رواية أخرى أنه جاء مع ألف من قومه.
 (٣) صوح البلدان ١٦٢.



الفصل التاسع

توجه اهل مكة والرسول (ص)

نحو الشمال

الصلات بين الشام والحجاز

كانت لبلاد الشام صلة وثيقة بالحجاز، يحكم اتصالهما الجغرافي وطبيعة البلاد بينهما، فأراضيها متموجة تتخترقها سلاسل جبال السراة التي تمتد من الشمال إلى الجنوب دون أن تكون حاجزاً بينهما إلا أن الروم الذين كانوا يحكمون بلاد الشام لم يحاولوا الاستيلاء على بلاد الحجاز، بل حرصوا على إقامة علاقات ودية مع العشائر العربية في أطراف دولتهم والحفاظ على علاقات طيبة مع العشائر المقيمة في شمال الحجاز

وكانت لمكة صلات قديمة ببلاد الشام، فقد بدأ قصي عند أخواله بني بلي في أطراف الشام^(١). وكان هاشم أول من مدّ التجارة المكية إلى الشام وأخذ الإيلاف، ولا بد أن عمله كان تعريراً لعلاقة كانت قائمة عملياً قبله. ولما خاضع عبد المطلب ثقيفاً لجأ معهم إلى كاهن بالشام يقال له همرو بن مسلمة

(١) المثنى لمحمد بن حبيب ٣٥، ٢٦٢

العلري^(١) وكانت لعمد المطلب تجارة مع الشام حيث ذهب إليها شريكه عمرو بن ربيعة^(٢).

وكان للرسول (ص) وأسرته نصيب كبير في هذه التجارة، فقد كان هاشم جد الرسول (ص) أول من أحد الإيلاف، ودفن في عرة في آخر سفرائه. وكان عبد الله، والد الرسول (ص) يسافر إلى الشام للتجارة. كما أن السفرتين الوحيلتين اللتين ذكرتهم كتب سيرة الرسول (ص) كانتا إلى بلاد الشام وصل فيهما إلى بصرى، أولاها مع عمه أبي طالب عندما كان صغيراً ولقي فيها بهيرا الراهب الذي تنبأ له بالسبوة، والثانية عندما كان في سن الخامسة والعشرين فسافر في تجارة للسيدة حذبة التي تزوجها بعد سفرته وأنجبت له أولاداً، وكانت أول من آمن به وشجعه

وكانت علاقة الروم بمكة علاقة خاصة وودية، فلم يعرقلوا التجارة معها، فكانت رحلة الصيف لقوافل أهل مكة تسير إلى بلاد الشام، وكانت القافلة من الأنباط تأتي من بلاد الشام بالحنطة والدرمك والزيت والقطنيات إلى المدينة، كما كان بعض يهود المدينة يحملون السلع من بلاد الشام، ولعلهم كانوا يصدرون بعض منتجات المنطقة ولا سيما الذهب الذي يسك منه الدينار وهو العملة الأساسية في بلاد الروم وفي التجارة العالمية^(٣)

وللإسلام موقف طيب من المسيحية التي كان يعتنقها أهل الشام منذ بدء الدعوة الإسلامية في مكة. فقد نزلت كثير من الآيات في ذكر عيسى ومريم والإنجيل وأشادت بهن وأشارت إحدى الآيات إلى حسن موقف البصاري من الإسلام حيث قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي﴾ [المائدة/ ٨٢]. ولما انتصر الساسانيون على الروم واحتلوا بلاد الشام وفلسطين ومصر

(١) المسق ٩٩.

(٢) المسق ٣٥٩، ٣٢٩.

(٣) انظر تفاصيل أوسع في كتاب كرون تجارة مكة عند ظهور الإسلام. وانظر محمود إبراهيم «العاصمة التجارية والإسلام»

نزلت آية تظهر عطف المسلمين على الروم وتتنبأ لهم بالانتصار حيث قال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنُسُلِهِمْ لَمْ يُولُوهٗ﴾ [الرّوم]، ونزلت آيات تؤيد نبوة عيسى وتذكر أنه جاء «من روح الله» وكلمة الله ألقاها في مريم، وكانت هجرة المسلمين الأولى إلى الحبشة التي تؤمن بالنصرانية.

ولمّا هاجر الرسول (ص) إلى المدينة أخذ يهاجم القوافل المكية الذاهبة إلى بلاد الشام، فتعطلت تجارة أهل مكة وضعفت، خير أن الرسول (ص) كان في السنوات الأولى من الهجرة منشغلاً في مقارعة قريش فلم يركز اهتمامه على تنظيم علاقاته مع بلاد الشام، أو يحاول أن يحل محل أهل مكة في هذه التجارة، واكتفى في البداية بإنشاء علاقات ودية مع القبائل العربية القاطنة في شمال الحجاز وعلى أطراف بلاد الشام وكشف حصار المشركين للمدينة، في موقعة الحندق، الخطر الذي يمكن أن تولده العشائر القاطنة في شمال المدينة على قاعدة المسلمين فيها.

ولمّا أظهرت قريش عدم تمكنها من القضاء على الإسلام، وبخاصة بعد فشلها في غزوة الأحزاب، وضعف روحها القتالية، وضمن الرسول (ص) بمعاهدة صلح الحديبية عدم هجوم مشركي قريش على الإسلام وقاعدته على المدينة، تقدّم بجيش إلى الشمال واستطاع إخضاع المستعمرات اليهودية في خيبر وفدك ووادي القرى، وكان لانتصاره هذا أهمية كبيرة، لأن خيبر وفدك أول مستعمرتين لليهود يستولي عليهما الرسول (ص)، وهما منطقة خصبة غنية وفرت للمسلمين مورداً كبيراً، وسيطرة على مصدر غني كان يمتون القبائل الأخرى بكثير من حاجاتهم الغذائية ثم إن خيبر كانت منطقة حصينة فيها كثير من الأطم والحصون الدفاعية، وكانت معقلاً لليهود المأويين للرسول (ص)، وكان لأهلها نفوذ على بقية اليهود وخصوصاً في شمال الحجاز^(١)، وأدى استسلامها إلى توقف نشاط اليهود العدائي للرسول، فتخلص من دسائسهم.

(١) انظر مقالنا «أراضي المعام وأحكام الرسول (ص) فيها» المنشور في مجلة «المبارة».

وكان أهل خيبر قد تحالفوا مع غطفان وطى، فكوّنوا بهذا الحلف حاجزاً أمام تقدّم الرسول إلى الشمال، فلم استسلمت خيبر أبداً هذا الحلف والحاجز الذي كوّنه وبذلك امتدت سيطرة الإسلام إلى شمال الحجاز وقربت المسلمين من حدود بلاد الشام والمناطق الواقعة في شمال الحجاز قرب حدود بلاد صحراوية جرداء قليلة المياه، وفيها عدد من الحرات أهمها حرة ليلى وحرة الرجال، ومساكنها القليلون قائل بدوية أبرزها فزارة وعذرة ويلى وجدام وكانت خاضعة لغوذ دولة الغساسنة العربية، فلما زالت تلك الدولة أصبحت كل قبيلة تتبع السياسة التي يقررها رؤساؤها دون تنسيق أو استمرارية، غير أنهم لم يخضعوا للبيزنطيين أو يدينوا لدولتهم بالولاء، فلما امتد سلطان الإسلام بعد فتح خيبر إلى تلك المناطق سارع عدد منهم إلى اعتناق الإسلام وإظهار ولائهم لدولته، غير أن بعض هذه القبائل طرّح خراج دولة الإسلام

وقد اعتدى بعض من لم يسلم من بني عذرة على رُسلِ كان النبي (ص) قد أوفدهم إلى بلاد الشام، فأرسل حملة بقيادة زيد بن حارثة لتأديب هذه القبائل والسيطرة عليها، ولعله استهدف أيضاً استطلاع القوات البيزنطية في تلك المناطق. واشتبكت هذه الحملة مع قوات عربية موالية للروم عند مؤتة، فقتل قائدها واثنا وليا القيادة بعد مقتله، فصلاً عن عدد من المسلمين، فقام خالد بن الوليد وكان مشاركاً فيها بسحب القوات الإسلامية.

واكتفى الرسول (ص) بعد فتح مكة بإرسال حملات إلى أطراف بلاد الشام، دون جهات أخرى، وكانت أبرز حملاته إلى دومة الجندل ومؤتة وتبوك. فأما حملته على دومة الجندل فكانت في ذي القعدة من السنة الخامسة، وهي واحة فيها نخل وزروع، ولم تكن خاضعة للروم، وكانت تُعقد فيها في النصف الأول من ربيع الأول سوق مشهورة عند العرب يتبادل السيطرة عليها الغساسنة والعباديون ويعشرون تجارات الناس فيها، وكانت السيطرة فيها بعد الهجرة لأكيدر بن عبد الملك العبدي^(١). ويبلغ الرسول (ص) أن أكيدر ظلم تجار

المسلمين ولكنه لم ينشب معهم قتالاً^(١). ثم أرسل في السنة السادسة سرية قوامها سبعمائة رجل بإمرة عبد الرحمن بن عوف. وتلاها بسرية بإمرة زيد بن حارثة إلى حسمي وراء وادي القرى ثاراً لقافلة اعتدى عليها رجال من جذام.

وفي السنة الثامنة للهجرة، أبعد بعد عمرة القضاء سرية إلى ذات أطلاق وهي من بلاد الشام في ديار قصاعة^(٢). وتلتها في جمادى حملة قوامها ثلاثمائة رجل، ثم عززهم بمائتين من أهل الشرف من المهاجرين والأنصار فيهم أبو مكر وعمرو، وكانت الحملة بإمرة عمرو بن العاص وسُميت ذات السلاسل^(٣).

وفي جمادى من السنة الثامنة أبعد الرسول (ص) حملة قوامها ثلاثة آلاف رجل أكثرهم من المهاجرين والأنصار، وأعلن الرسول (ص) عن الاستعدادات لها، وعيّن لها قائدين هما زيد بن حارثة المقرب إليه، وجعفر بن أبي طالب، ابن عمه ليتولى القيادة إذا أصيب زيد وشيخهم إلى خارج المدينة، ووصلت الحملة إلى مؤتة قرب معان، وهي من أرض البلقاء من مشارف الشام جنوب شرق البحر الميت، فاهتم هرقل بأمر الحملة، وكان مقيماً في مآب، فجمع جموعاً من الروم والعرب المستعربة^(٤) واشتكت القوات الإسلامية مع قوة بني يقودها مالك بن رافلة العسائي وفي طبيعته شروحييل بن عمرو العسائي، وكان القتال ضارياً قتل فيه زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبي طالب، فتولى القيادة خالد بن الوليد ومحب الجيش الإسلامي^(٥). إن هذه المعركة نبهت الروم إلى قوة الإسلام، فزاد اهتمامهم بتوثيق صلاتهم بالقبائل التي في أطراف دولتهم ممن يقيمون في شمال الحجاز.

وغزوة مؤتة تظهر اهتمام الرسول (ص) بالتوسع نحو الشمال. والواقع أن

(١) ابن هشام ١٢٥٢/٣ مغاري الواقدي ١٥٦١/٢ المحبر ١١٦.

(٢) مغاري الواقدي ٧٥٦.

(٣) الطبري ١/١٦٣٠.

(٤) الطبري ١/٦١٠.

(٥) الواقدي ١٧٦٠؛ ابن سعد ١١٤٨/٢؛ الطبري ١/١٦١٠ - ١٤ تاريخ دمشق ٣٨٨/١.

عدم نجاح الغزوة ومقتل قوادها، لم يؤدي إلى تعديل الرسول (ص) سياسته، فقد جهز الرسول حملة أخرى إلى الشمال قادها بنفسه، وقد تم ذلك في أواخر السنة التاسعة في فصل الصيف الحار مما أثار تذمر بعض المسلمين من الحر وصعوبة الحصول على وسائل النقل والتجهيزات وقد سمي هذا الجيش (جيش العسرة).

وبالرغم من كل ذلك فقد أصر الرسول على إنقاد الحملة، وأعلن عن وجهتها خلافاً لعادته في التكتّم في وجهة حملاته، ولعل إعلان هذا لاعتقاده بخلو المدينة من جواسيس للروم بعد أن طهرها من العناصر المريبة، أو ربما أراد الرسول بهذا الإعلان أن يظهر أن نتيج غزوة مؤتة لم تؤثر عليه.

تقدمت الحملة إلى الشمال متعة الطريق التجاري القديم بين الحجاز وبلاد الشام حتى وصلت نوك، وأقام الرسول في طريقه عدة مساجد، ثم عاد دون أن يشتبك بقتال حامي أو يقوم بعمل حاسم واستغرقت هذه الحملة أكثر من شهر.

وتابع الرسول اهتمامه بالجبهة الشمالية فجهز حملة أخرى وتولى قيادتها أسامة بن زيد الذي قتل أبوه في غزوة مؤتة، وكان اختار الرسول (ص) أسامة رغم حداثة سنة إكراماً لأبيه. غير أن الرسول (ص) توفي قبل أن تغادر الحملة المدينة، فتأخر إرسالها. فلما تم انتخاب أبي بكر أملاً تلك الحملة رغم اعتراض بعض الصحابة على تولي أسامة قيادة الحملة، ورغم الأخطار التي كانت تهدد آنذاك المدينة وكان أبو بكر يعتبر إنفاذ تلك الحملة جزءاً من سياسته الأساسية في عدم تعيير أي قرر اتخذه الرسول. وقد تقدّم أسامة بحملته نحو الحدود الشمالية إلى أبل الزيت وفضى مدة شهرين في تلك الأطراف دون أن يقوم بعمل حاسم يستحق الذكر والواقع أن أهمية هذه الحملة ترجع إلى تقرير الرسول إرسالها وإصرار أبي بكر على إنفاذها في تلك الظروف المتوترة وليس إلى الإنجازات الحربية التي قامت بها^(١).

(١) انظر تفاصيل أومي في كتابنا «الدولة في عهد الرسول (ص)».

موقف قريش والعرب من الفتوح في جبهة بلاد الشام

لما وليّ أبو بكر الخلافة بعد وفاة الرسول (ص) تابع سياسة الرسول (ص) في التوسع نحو الشمال. وكان أهل مكة أول من استجاب لدعوة أبي بكر في النهوض والانضمام إلى الجيوش التي أبعدها إلى بلاد الشام، ومما يدل على سعة استجابتهم أن عدد من ذكر استشهادهم من قريش في المعارك الأولى في فتوح بلاد الشام يفوق عدد من استشهد من العشائر الأخرى وتجدر الإشارة إلى أن أبا بكر جعل قيادة هذه الجيوش لرجال من مختلف عشائر مكة كان قد أسلم أكثرهم بعد الحديبية، وهم خالد بن سعيد بن العاص (وهو من المسلمين الأوائل)، ويريد بن أبي سفيان (أمية) وعكرمة بن أبي جهل، وخالد بن الوليد (مخروم)، وعمرو بن العاص (سهم)، وأبو عبيدة بن الجراح (مهر)، وشرحيل بن حسنة (حليف جمع)^(١)

وظلت لأهل قريش مكانة متقدمة في بلاد الشام بعد الفتح فإذا كان اللقاء تقدم ربيع قريش من أهل دمشق حتى يكونوا عند راية الأمير والجماعة، ثم ربيع كعدة عن يمينهم^(٢) وكان أهل الشام يسمون من استقر بالشام من أهل الحجاز (الجالية)^(٣).

وانضمت إلى الجيوش الإسلامية أعداد من قبائل كعب، وأسلم وغفار ومزينة، ومن عشائر قضاة القاطنة في أطراف الحجاز الشمالية المتاخمة لحدود الروم مثل بهراء، وكلب، وسليح وقتوخ^(٤).

استجاب لدعوة أبي بكر جماعات من أهل اليمن ومنهم ذو الكلاع انهض في قومه من ساعته، وعسكر معه جموع كثيرة من أهل اليمن، ثم جاءت

(١) ابن أضم ١٧/١، ١١٩.

(٢) تاريخ دمشق لابن عسك ٢٦٢/١.

(٣) الأغاني ٢٢٨/٩؛ أنساب الأشراف ٢٠٢/٥.

(٤) ابن أضم ١٠٤/١.

نساؤها وأولادها»^(١). «واقبلت خثعم بسائهم وأولادهم، وهم دون الألف وفوق التسعمائة، عليهم ابن دي السهم»^(٢). كما جاء قيس بن هبيرة المرادي ومعه جمع كبير من مذحج^(٣)، وحمزة بن مالك الهمداني في ألفي رجل ويذكر ابن أعثم ممن انتدب لأبي بكر همدان ومراد والأزد^(٤)، وكان أبو بكر كتب إلى أهل اليمن مع أنس بن مالك في ربيع الآخر للسنة الثانية عشرة^(٥) ولعله بعد أن تصدى الروم للعرب

موقف العرب في أطراف بلاد الشام من التحركات الإسلامية

يروى البلاذري أن أبا بكر عندما احتار الفواد للجيش التي أنفذها إلى بلاد الشام أمرهم أن يستنفروا من يمرون عليه من القاتل ممن لم يرتد^(٦). ومن المعلوم أن العشائر التي كانت ديارها في شمال الحجاز شملت طي، وأسد، وقرارة، وخطفان (عسر وذبيان) وعشائر قصاعة وما تشمله من سعد هذيم وعذرة وبلي. وكانت هذه العشائر كافة قد انصبت إلى دولة الإسلام في أواخر حياة الرسول (ص)، ولم يرد لرحلتها ذكر في أخبار الفتوح الأولى في الشام، مما يدل على ضعف إسهامهم في حركات تلك الجبهة.

أما طي فكانت أبرز منارلها في حل طي عند حائل، ولم يرد ذكر لعلاقاتها بحكم بلاد الشام أو بفسان. ويلاحظ أن المصادر السريانية تطلق على أصراب البوادي اسم «طياية» الذي أطلقه الساسانيون والصينيون على العرب،^(٧) وتدل هذه التسمية على أن طي كانت أكر العشائر المتصلة بمناطق استيطان السريان ودولهم. وعند ظهور الإسلام، كانت لطي منارل في حاضر طي التي تقع قرب

(١) الأزدي ١٧ ابن عساكر ٤٥٢/٢.

(٢) الأزدي ٢٥.

(٣) الأزدي ٧.

(٤) ابن أعثم ١٠٤/١.

(٥) ابن عساكر ٢٤٥/١.

(٦) فتوح البلدان ١٠٦.

(٧) سيجال أديسا ٢٥.

قُسرين، ويروي البلاذري عن هشام بن عمار الدمشقي عن عبادة بن أنس «كان حاضراً طي قديماً نزلوه بعد حرب المساد التي كانت بينهم حين نزلوا الجبلين من نزل منهم وتفرق باقوهم في البلاد، فلما ورد أبو عبيدة عليهم أسلم بعضهم وصالح كثير منهم على الجرية ثم أسلموا بعد ذلك بيسير الزمن وشذ عن جماعتهم»^(١). ويقول اليعقوبي «وبراء مدينة قُسرين مدينة يقال لها حاضراً طي بها منازل طي»^(٢).

كانت جذام ولخم العشيرتين الرئيسيتين في الأطراف الجنوبية من بلاد الشام، وكانت ديار جذام في أطراف حمص»^(٣).

لم تذكر المصادر مقاومة هذه العشائر القوات الإسلامية عند تقدمها، والواقع أن أول معركة خاضها العرب في جوب بلاد الشام كانت مع قوات من الروم، ولم تذكر المصادر أن العرب قاتلوا فيها مع الروم، وإنما يذكر البلاذري عن أبي حمصة الدمشقي أن العرب لم يقاتلوا قبيل ذلك من الحجاز، ولم يعمروا بشيء من الأرض فيما بين الحجاز وموضع هذه الواقعة إلا غلبوا عليه بغير حرب وحصار في أيديهم»^(٤).

عندما تقدم العرب إلى أطراف بلاد الشام لم يلقوا مقاومة من أهلها فتوغل عمرو بن العاص في فلسطين حتى وصل أطراف غزة كما أن يزيد بن أبي سفيان غلب على جميع أرض اللقاء دون مقاومة تذكر»^(٥).

يذكر الأزدي في كلامه عن موقعة فحل «وجاءت لخم وجذام وعاملة والقيين وفصائل من قضاعة فدخلوا مع المسلمين فكثر عددهم وصاروا معهم في

(١) فتوح البلدان ١٤٤، معجم البلدان لياقوت ١١٨٥/٢ بحية الطلب لابن النديم ٦٧٩/١.

(٢) البلدان ٣٢٤، بحية الطلب ١٧٩/١.

(٣) معجم ما استعجم، البكري ٢٣٥، معجم البلدان ٤٠٧/١، مزيل شمال الحجاز ١٣٤.

(٤) فتوح البلدان ١٠٨.

(٥) الأزدي: فتوح الشام ٢٣٩، ابن أعثم ١٠٠/٢.

عسكرهم وأخذ أهل البلد من الصاري يرسلون المسلمين^(١). ويقول أيضاً إنه بعد تفجّر المياه في فحل انضم إليهم أهل القرى والرساتيق^(٢) ويذكر أن أبا عبيدة كتب إلى عمر بن الخطاب على أثر الموقعة يحبره أنه سارع إليهم أهل البلد ومن كان على ديبهم من العرب^(٣)، وأن الروم انسحبوا إلى الحصون وأقام المسلمون على الحصون وقد جلبوا على سواد الأردن وعلى ما فيها^(٤).

وفي اليرموك حارب لعرب المنصورة مع المسلمين، وكانت لخم وجدام وغسان وقضاة وعاملة في الميسرة^(٥).

أما العشائر المقيمة في أقصى الأطراف الشمالية للحجاز فهي عدرة وسعد هذيم وبلي وعاملة وكلها أسلمت متأخرة، ولم تشارك في حركات الردة والانشقاق بعد وفاة الرسول (ص) فحصدت بولائها للإسلام ودولته، وكان على صدقاتها الوليد بن عتبة وعمرو بن العاص الذي ولي قيادة أحد الحيوش الثلاثة التي أنعمها أبو بكر إلى بلاد الشام، ويروى أنه كان معه عندما خرج من المدينة ثلاثة آلاف، ثم صار لعسبة آلاف، أي إنه انضم إليه بعد خروجه من المدينة أربعة آلاف ولا بد أن كثيراً من هؤلاء كانوا من العشائر الثلاث المقيمة في أطراف الحجاز الشمالية، غير أنه لا توجد إشارة إلى دور بارز لهم ولرجالهم في أخبار فتوح بلاد الشام.

(١) الأزد ٩٧

(٢) الأزد ٩٨.

(٣) الأزد ١١٠ ابن أعم ١٨٥/٢.

(٤) الأزد ١٢١

(٥) الأزد ٢٢٦ - ٢٧ ابن أعم ٢٢٥/١

الفصل العاشر

المصادر وتتابع الحوادث

المصادر

إن المعلومات التي وصلتنا عن فتوح الشام جاءت من روايات عربية لرواة عاشوا في أواخر القرن الأول أو في القرن الثاني للهجرة، ودونها مؤلفون من أهل القرن الثالث الهجري فيما بعده.

أما المصادر السريانية التي ذكرت أخبار فتوح الشام فهي متأخرة نسبياً، ومعلوماتها مقتضبة تطابق ما أورده الكتب العربية، مما يدل على اقتباسها منها، وأبرز هذه المصادر هي كتاب ثيوفانس (٢٠٤هـ - ٨١٩م) ومعلوماته واسعة، ولكنها لا تخرج عما ذكره المؤلفون العرب وذكر كل من الياس النصيبى ومؤلف إسباني مجهول، وميخائيل السوري معلومات مقتضبة لا تضيف شيئاً إلى ما في الكتب الأخرى.

أما العرب فإن الأولين منهم لم يؤلفوا كتباً، وإنما رووا أخباراً نقلها عنهم عدد ممن تلاهم وأبرز هؤلاء الرواة: محمد بن مسلم المشهور باسم ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤) ومحمد بن إسحاق لمطليبي (ت ١٥٠)، ومحمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧)، وسيف بن عمر التميمي (ت ١٧٠ أو ١٩٠)، وأبو

مخنف لوط بن يحيى (ت ١٥٧)، وعلي بن محمد المدائني (ت ٢٢٥)^(١)،
والوليد بن مسلم؛ والثلاثة الأولون من أهل الحجاز، وللأول صلة وثيقة ببلاط
الأمويين في الشام. أما الاثنان الآخران فهم من أهل العراق، والسابع من أهل
الشام.

أما الكتب التي وصلتنا وفيها معلومات عن فتوح الشام فأقدمها «فتوح
الشام» لمحمد بن عبد الله الأردني البصري (ت ٢٣١) وكتاب «التاريخ»
لخليفة بن حياط (ت ٢٤٠)، و«فتوح البلدان» للبلاذري (ت ٢٧٩)، وتاريخ أبي
زرعة الدمشقي (ت ٣٨٠)، وتاريخ اليعقوبي (ت ٢٨٤)، و«الأخبار الطوال»
لأبي حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢)، وتاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير
الطبري (ت ٣١٠)، وتاريخ ابن أعثم (ت ٣١٤)، وفيما عدا اليعقوبي
والدينوري وابن أعثم فإن هذه الكتب ذكرت معظم الرواة الذين اقتُست منهم
المعلومات. فأما خليفة بن حياط فقد أكثر من الإشارة إلى ما رواه عن ابن
إسحاق، وأما البلاذري فقد ذكر ممن روى عنهم في معظم ما رواه وقد أكثر
من الرواية عن الواقدي والمدائني كما نقل عن رواة من أهل الشام ذكر أسماء
بعضهم، واكتفى بالإشارة عن بعضهم الآخر بأنهم من أهل البلاد التي روى
أخبار فتوحها.

أما الطبري فقد عُني بذكر روايتهم ومن أخذوا منهم، ونقل روايات مقتضة
عن الزهري وابن إسحاق والواقدي، وأفاض في النقل عن سيف بن عمر
والمدايني.

كانت هذه الكتب المعين الأكبر لكتب نالية بحثت فتوح بلاد الشام ومن
أبرزها تاريخ دمشق لابن عساكر (ت ٥٧٠) و«الكامل في التاريخ» لعز الدين بن
الأثير، و«البداية والنهاية» لابن كثير، و«العبر» لعبد الرحمن بن خلدون، و«بعية

(١) انظر عنهم: فؤاد مزيك، تاريخ التراث العربي، م ١، ج ٢، عبد العزيز النوري، نشأة علم
التاريخ عند العرب.

الطلب» لابن العديم. ولكتاب ابن عساكر مكانة متميزة لاستيعابه مادة المصادر الأولى المطبوعة والمفقودة، وتقمها تبعاً لحوادث أو المسهمين فيها. فمادته غنية متنوعة وتعليقاته لا تثنى ولا عى عنها.

وتجدر الإشارة إلى ما ذكرته كتب السب، لا سيما كتابي «الأنساب» لهشام ابن محمد الكلبي، و«نسب قريش» لمصعب الزبيري، ففي كل منهما معلومات عن رجال شاركوا في الفتوح وعن علاقاتهم السببية والمعارك التي شاركوا فيها واستشهدوا. ولكن ثمة تباين في تواريح المعارك وتسلسلها الزمني وفي أسماء القادة، وفي عدد من التفاصيل الأخرى

وقد عُيِّن عدد من الباحثين المحدثين بدراسة فتح العرب للشام، وأبرز هؤلاء دي غويه في دراسته «مذكرة عن فتح بلاد الشام» وميدكوف عن «معركة أجنادين» التي اعتمدها العميد طه الهاشمي في دراسته لتلك المعركة ونشرها في مجلة المجمع العلمي العراقي، وكايناني في كتابه الواسع «حوليات الإسلام» الذي دَوَّن فيه أحداث «الفتوح الإسلامية» مُرتبة على السنين؛ كما بحث في كتابه «دراسات في تاريخ الإسلام» «مواقع الفتح»، ولكتاب دونر «الفتوح الإسلامية» مكانة متميزة لشموله وعرارة مادته، واهتمامه بتوضيح بعض الجوانب التي لم يُعَنَّ بها من قبله.

ويبحث عدد من العرب في الفتوح، نذكر منهم جورج مرعي حداد في رسائله فتح العرب لبلاد الشام وقد اعتمد على دي غويه؛ كما بحث هذه الفتوح أحمد كمال عادل في كتاب حاصر هو حلقة من سلسلة كتبه القيِّمة في فتوح العراق وبلاد الشام.

وخصَّ المجلد الثاني من وقائع المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام بأحوال هذه البلاد عند الفتح الإسلامي، وعرض المشاركون في الندوة أبحاثاً قيِّمة عن جوانب متعددة لأحوال البلاد خلال هذا الفتح

ونُشِرت عدة أبحاث عن الحروب الإسلامية البيزنطية، ومن أبرزها كتاب «التزاع بين العرب والروم» لعد الهادي شفيق.

أما فتح مصر فلا يزال أوسع كتاب حديث معتمد هو كتاب الفرد بتلر «فتح العرب مصر» الذي كان معتمد كتاب «عمرو بن العاص» لحسن إبراهيم حسن. أما الكتب القديمة فأقدمها وأوسعها كتاب «فتوح مصر وإفريقية» لابن عبد الحكم، و«الولاة والقضاة» للكندي، و«لخطط المقرئية».

أما بلاد شمال إفريقية والمغرب، فمن أقيم الكتب الحديثة عنها «فتح العرب للمغرب» لحسين مؤسس، و«تاريخ المغرب» لسعد زعزلول اللذين اعتمدا على مؤلفات أهل المغرب القدماء، وعلى عدد من الدراسات الحديثة، وعليهما كان اعتمادنا.

أما الأندلس فمن أقيم الكتب الحديثة عنها كتابا «إسبانيا الإسلامية» لبروفيسال، و«فتح العرب للأندلس» لحسين مؤسس، وعليهما كان اعتمادنا.

السمات الخاصة للحركات العسكرية والمعارك في بلاد الشام

قاتل العرب في فتوح العراق وبلاد الشام قوات عسكرية لها تاريخ طويل في الحروب لكثرة ما حاصت من معارك كبيرة أكسبتها خبرات واسعة، واستقرت فيها تقاليد، كانت هذه القوات تابعة لدولتين تضم كل منهما بلاداً واسعة تمدّها بالرجال والأموال، وكان قتل العرب المسلمين لكل من هاتين القوتين جديداً عليهم ولم تكن لهم قبده خبرات واسعة فيها؛ والمعارك التي حاضها العرب ضدّ الفرس قل، لإسلام كانت معارك محدودة في زمانها ومكانها ونطاقها، ولم تكن من السعة والتكرّر، بما يكفي إكساب العرب خبرة في معالجتها، وهذا ينطبق بمقياس أصيق على علاقاتهم بالروم.

غير أن العرب لم يكونوا جاهلين كياً بالقوات العسكرية لكل من الدولتين الفارسية والرومية، حيث إن عدداً من العرب شارك في القتال مع جيوش كل منهما، كما أن الصلات السلمية بين العرب وهاتين الدولتين بسّرت لهم فرصة الاطلاع على أحوالهما الجغرافية والإدارية والمادية، وعلى التعرف إلى نظميتهما العسكرية وقواتهما، وربما إلى كثير من تقاليدهما.

ويختلف مجرى تسلسل معارك الفتح في العراق عنه في بلاد الشام حيث إن الفتح في العراق مهدت لها حركات قطبة بن قتادة والمثنى بن حارثة التي وإن لم تصطدم بقوات عسكرية فارسية كبيرة إلا أنها قلعت حوافز إضافية، وبُهِت الفرس إلى خطر تقدّم العرب وإن لم يتحدوا تجاهه في المراحل الأولى أعمالاً حاسمة.

واتخذت سلسلة المعارك التي حاصها العرب المسلمون في جبهة العراق خطوطاً مستقيمة جرت عليها هذه المعارك، فكانت حركات خالد بن الوليد سلسلة من المعارك جرت من الجنوب إلى الشمال، مبتدئة بكاظمة، فالأبلة، فالولجة، فاليس، فالهيرة، فالأنبار، فعين التمر، فالمثنى. أما حركات سعد بن أبي وقاص فقد سلكت خطاً مستقيماً من الغرب إلى الشرق متدئة بالقادسية والهيرة التي كانت منطقة البدء الأساسية، ثم سارت إلى المدائن فجلولاء فنهاوند، وتفرّع منها فرع إلى كسكر وقرعان رئيسان نحو الشمال سلك أحدهما وادي دجلة إلى تكريت بالموصل، **وسلك الثاني** شهرزور والجهال فأديبيجان

ومثل هذه الخطوط المستقيمة اتبعت بعد نهاوند حيث سلك خط إلى الري فخرجان، والثاني إلى أصفهان وسلك فتوح البصرة، فيما عدا الأهوار، مثل هذا الحط إلى إقليم فارس فخراسان التي حاص العرب للاستيلاء عليها معارك متعددة ومتناثرة للاستيلاء على من قاوم العرب من مدنها. ولم يعد للفرس بعد اندحارهم في نهاوند قوة ذات سلطة عبا توجه مقاومة العرب.

وعمدت الخلافة إلى أن يقاوم الجيش في جبهة العراق مجموعة موحدة بإمرة قائد واحد منذ أن أرسل خالد بن الوليد، فاسن عبيد، فخرير البجلي، فسعد بن أبي وقاص، ثم عبد الله بن عامر ومن تلاء في ولاية خراسان. وكانت مهمة الجيش الإسلامي ملاحقة جيش الفرس ومقاتلته وفيما عدا أليس والأنبار وبهرسير، فإنه لم يقاوم حصوياً، ولم تفرقه وتشعب تكتله مقاومات مدن، فالفرس لم يستغلوا المدن في مقاومة تقدّم الجيش العربي.

أما جبهة بلاد الشام فكان الوضع فيها مختلفاً، حيث أرسل العرب منذ

البداية عدة قواد يقاتل كلٌ منهم في جبهة خاصة مع الجند الذين بإمرته، وبذلك كانت قواتهم في البداية متفرقة، وحتى عندما اقتضت الظروف تجميع قواتهم، فإن القيادة ظلت متفرقة وغير موحدة إلى زمن خلافة عمر بن الخطاب، أي بعد أكثر من سنتين حاضوا خلالها عدة معارك كبيرة، وقد اختلف الرواة القدماء في تحديد أعمال القادة المسلمين، رغم اتفاقهم على أسمائهم، إلى أن وليَّ عمر بن الخطاب الخلافة فوحد القيادة

ولم تكن خطوط تقدّم العرب في جبهة بلاد الشام مستقيمة أو مظردة، ولعل من أبرز أسباب ذلك أن المدن في بلاد الشام كانت متعددة. ولكلٌ منها كيان متميز، وأكثرها كان محصّاً بأسوار مينة، وكانت تخترق البلاد سلاسل جبلية تمتد من الشمال إلى الجنوب فتيسر للعرب التقدم في السهول التي يسها، ولكنها تعيق تقدّمهم من الشرق إلى الغرب، فضلاً عن السواحل الطويلة للبحر المتوسط ووجود الأسطول البيزنطي مما يجعل الحركات تحدث في أماكن متعددة، ويزيد في إرباك القوات العربية الإسلامية ويحملها على عدم التمسك بالسير في خطوط مستقيمة. وكان هذا من أسباب اختلاف الرواة في وصف التسلسل الزمني للمعارك وتقدير أهمية كل منها.

ثم إن الامبراطور هرقل، وهو القائد الأعلى للروم، كان يتميز بالمفاجآت والاهتمام بالالتفاف ومفاجأة خصومه بضربهم من وراء، وهذا ما فعله عندما تقدّم من تونس إلى اليونان فالقسططنية، في حملته التي قادها بنفسه وهدد فيها عاصمة الفرس فأجبرهم على الانسحاب من أطراف القسطنطينية ومن مصر عندما توجهوا إليها.

غير أن القوات الإسلامية في جبهة العراق تاهت تقدّمها إلى أواسط آسيا بعد تضعف الحكم الساساني بسقوط العاصمة طيسفون القريبة من حدوده الغربية. أما البيزنطيون فكانت عاصمتهم القسطنطينية في الشمال بعيدة عن جبهة القتال، يفصلها عن بلاد الشام سلاسل جبال طوروس الوعرة، ووراءها هضبة الأناضول الواسعة والمعقدة أحوالها الجغرافية، إضافة إلى أن الروم كانوا

يهيمنون على شرق أوروبا ويستفيدون من رجالها في متابعة قتال العرب؛ ولهم أسطول يسيطر على البحر المتوسط؛ مما أوقف العرب في تقدّمهم إلا في شمال إفريقيا حيث سارت حركاتهم بحطوط مستقيمة عموماً حتى أوصلتهم جبال اليرانيس ولم يكن للأسطول البيزنطي دور في عرقلة تقدّمهم؛ واقتصر دوره على تهديد غير حاسم لموانئ بلاد الشام والجزر لقريبة منه.



الفصل الحادي عشر

المقاتلة العرب في جبهة بلاد الشام

كان أول عمل قام به أبو بكر بعد توليه الخلافة هو إنفاذ حملة أسامة بن زيد في أحوال كانت فيه الدولة الإسلامية تواجه أزمات خطيرة، وقد قام بذلك بالرغم من حاجة الدولة إلى مقاتلة تكون قريبة من الخليفة وتحت تصرفه، ومعارضة بعض الأنصار لاختيار أسامة^(١)، وهذا الإنفاذ يظهر عزم أبي بكر على متابعة سياسة الرسول (ص) دون تبديلها^(٢)، وهما كانت الأحوال. وكان جيش أسامة مكوناً من العشائر الحجازية التي بقيت متمسكة بالإسلام ودولته، ومن أهل المدينة، بعد أن أقرى عددًا منهم ليكونوا كالمسالح للمدينة^(٣)، ولم يذكر عدد هذا الجيش.

توجه أسامة مع قواته إلى بلاد قضاة في الشمال حيث قضى أربعين يوماً أخضع خلالها بعض من انشق على الدولة^(٤)، ووصل إلى آبل^(٥) بعد أن أمن سيطرة الدولة على قضاة.

ثم ولّى أبو بكر عمرو بن العاص والوليد بن عقبة صدقات قضاة وكتب إليهما «أن استحلما على أعمالكما وأندا من يلبكما فقلّيم اليهما بشر كثير»

(١) الطبري ١/١٨٤٩.

(٢) الطبري ١/١٨٤٨.

(٣) الطبري ١/١٨٥١، ١٨٧١.

(٤) الطبري ١/١٨٧٢.

وانتظروا أمر أبي بكر^(١)، ومن الواضح أن الذين انتدبوا هم رجال من عشائر قضاة الموالية للإسلام، وهي سعد هذيم وعذرة ومن لفها من جذام وحلمس^(٢).

وكان أبو بكر يفكر في توجيه القوات الإسلامية إلى بلاد الروم، ويروي أبو زرعة أنه قال «فوالله لقرية من قرى الشام يفتحها الله على المسلمين أحب إلي من رستاق عظيم من رستاق العدو»^(٣). وينقل ابن عساكر أن أبا بكر «حدث نفسه بأن يغزو الروم فلم يطلع عليه أحداً، وأن شرحبيل بن حسنة أدرك بهدسه ما يجول ببال أبي بكر ففاته وشجعه وقل إن فيها الزرع والقرى والحصون شتوا الغارة على أعداء الله»^(٤). ويروي أيضاً أن أبا بكر عندما أعلن فكرته أيدته جماعة من المهاجرين والأنصار، وأن عمر بن الخطاب قال له «تبعت الخيل فتغير في قواصي أرضهم ثم ترجع إليك»^(٥).

واهتمام أبي بكر في التوجه نحو شمال هو متابعة لأعمال الرسول (ص) في سنواته الأخيرة، وإذا لم يكن أبو بكر قد أسهم في وضع خطط الرسول (ص) فهو قد تفهم دواعيها ومراميها، غير أن توزيع القوات التي أرسلها على عدة قواد لتتوجه إلى عدة جهات يدل على أن عرضها في أول الأمر هو القيام بغارات في عدة جهات تكشف قوات العدو ودفاعاتهم فتضعفهم وتيسر القضاء عليهم وخصوصاً أن آثار حركات الانشقاق والردة لم يتم اجتثاثها بعد. وعبر عن ذلك سيف بن عمر بقوله إن أبا بكر عندما بعث أبا عبيدة ويزيداً أمر كلاهما بالغارة وألا يتوغلوا حتى لا يكون وراءهم أحد من

(١) الطبري ١/٢٠٨٣ تاريخ دمشق لابن عساكر ١/٤٥٢

(٢) الطبري ١/٢٠٨٢ ابن عساكر ١/٤٥٢.

(٣) تاريخ أبي زرعة ١٧٢.

(٤) ابن عساكر ١/٤٤١.

(٥) ابن عساكر ١/٤٤٥.

عدوهم^(١)، وكان يدرك أن الروم مستغلهم «فأحب أن يصعد المصوب ويصوب المصعد لئلا يتواكلوا»^(٢).

ويذكر الطبري أن أبا بكر كتب إلى الوليد بن عقبة، وكان يلي صدقات قضاعة بالأردن وأيده،^(٣) غير أنه لم يذكر للوليد وقواته حركات أو دوراً بارزاً في الفتح، وإنما لحق به خالد بن سعيد.

كانت أولى القوات العربية التي توجهت إلى الشام هي التي سارت مع القواد العرب الأولين الذين أنفلهم أبو بكر، وهم عمرو بن العاص والوليد بن عقبة اللذان ولّاهما على صدقات العشائر التي ديارها أطراف بلاد الشام، ثم كتب إلى عمرو بن العاص «إني قد استعملتك على من مورت به من يلي وعدرة وسائر قضاعة ومن سقط هناك من العرب فأبدأهم على البر والجهاد، فمن تبعك منهم فأقله وزوده، ورافق يسهم واجعل كل قبيلة على حديثها ومنزلتها»^(٤)، ويذكر ابن عساکر أن عَمْرًا كان في طريقه من المدينة إلى الشام يدعو الأعراب الذين يمر بهم إلى الانضمام إليه فانضم إليه عدد كبير فبلغ الشام في جيش من العيين^(٥).

ويذكر أيضاً أن عمرو بن العاص عندما تحرك إلى بلاد الشام قدم أمامه مقدمة عليهم سعيد بن الحارث السهمي، ودفع لواءه إلى الحجاج بن الحارث السهمي، وكان جد عمرو الذي خرجوا معه من المدينة ثلاثة آلاف، فيهم ناس كثير من المهاجرين والأنصار، وخرج أبو بكر الصديق بمشي إلى حيث راحلة عمرو بن العاص^(٦) وقد تم جمع هذه القوات بالندب^(٧).

(١) الطبري ٢١١١/١.

(٢) الطبري ١٠٨٦/٢.

(٣) الطبري ٢٠٨٤/١.

(٤) الطبري ١٢١٠٨/١ ابن عساکر ٤٥٢/١.

(٥) الأزدی ٢٥١، ويذكر ابن عساکر ٤٤٦/١ أن الجيش بلغ ثلاثة آلاف.

(٦) ابن سعد ٣ - ٢/٢٠٠ تاريخ دمشق لابن عساکر ٤٤٦/١.

(٧) الطبري ١٢٠٨٣/١ تاريخ دمشق لابن عساکر ٤٤٦/١، ٤٥٢.

يتبين من هذه النصوص أن عماد لقوة التي سارت مع عمرو بن العاص هي عشائر بني وعذرة ومن بقربها، ونظم إليها «ناس كثير من المهاجرين والأنصار» من أهل المدينة، ورتبوا تبعاً لانتماثلهم القبلي «وكل قبيلة على حدتها ومنزلتها» وبلغ عددهم ثلاثة آلاف، وكان للسهميين مكانة خاصة في القيادة، ولعل تركيب جيش الوليد بن عقبة الذي لم ترد عنه تفاصيل كان يشبه جيش عمرو بن العاص.

وكتب أبو بكر إلى عمرو بن العاص أيضاً «إني قد استعملتك على من مررت به من بني وعذرة وسائر قصاعة وقد سقط هناك من العرب فادعه على البر والجهاد واجعل كل قبيلة على حدتها ومنزلتها». وكتب إليه «قد أحست أن أفزعك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه»

ويقول أيضاً إن عمرو بن العاص خرج من المدينة، وخرج إليه سهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وابن أبي حكيم بن أبي جهل وهؤلاء الثلاثة في ثلاثة آلاف فارس من قومهم ومواليهم^(١) وخرج إليه أبو الأعور السلمي، وحصص بن يزيد ابن عمه في ألف وسعمائة فارس، وخرج إليه الضمادة بن قيس الفهري في ثلاثمائة فارس، وعصير بن صداء المرادي في مائتي فارس، فصار عمرو بن العاص في قريب من ثلاثمائة فارس^(٢)

ويذكر الطبري أن عمرو بن العاص بعد أن جمع قوات من قضاة أمده أبو بكر بمن انتدب له^(٣).

ذكر الطبري أنه بعد استقرار سلطة الدولة في جزيرة العرب «كتب أبو بكر إلى عمال الردة فإن أحب من أدخلتم في أموركم إلى من لم يرتد، ومن كان

(١) ابن أعمش ١/١٢٣.

(٢) فتوح البلدان ١٠٧.

(٣) تاريخ خليفة ٤٨٥، طبري ١/٢٠٨٩ (عن ابن إسحاق).

ممن لم يرتد فاجمعوا على ذلك، فأنخدوا منها صنائع، واثذنوا لمن شاء في الانصراف، ولا تستعينوا بمرتد في جهد عدو^(١).

كانت دعوة أبي بكر دعوة عامة، غير أن لها وقعاً خاصاً في الحجاز واليمن، لأن العشائر المرتدة فيهما كادت قبيلة؛ وكان الأقباء والمتنفذون الذين يسيطرون على عالية مناطق اليمن قد اتصل رجال منهم بالرسول (ص) ولم يشاركوا في حركات الردة والانشقاق، ولا بد أنهم كانوا أكثر استعداداً للاستجابة إلى دعوة أبي بكر والتعاون معه. وكانت هذه الدعوة تهيء لهم مجالاً لاستغلال طاقاتهم وإمكانياتهم العسكرية التي كانت تستند محلياً دون نتائج حاسمة، في حين أن دعوة أبي بكر تبشر لهم مجال استغلالها تحت ظل دولة واسعة فتكون ضمن حركة شاملة تتوجه إلى خارج الجزيرة، ولا بد أن بعضهم كانت له خبرات في التعامل مع القوات الأجنبية من خلال حروبهم مع الأحباش والفرس، وكانت طموحاتهم أوسع مع بلاد الشام حيث كانت لهم صلات تجارية قديمة

ويذكر الأهدل أن أبا بكر كتب إلى أهل اليمن في جهاد الروم يذكر لهم الجهاد ويقول «وقد استنفرنا من قتلنا من المسلمين إلى جهاد الروم، وقد سارعوا إلى ذلك وعسكروا، وخرجوا وحسنت في ذلك بينهم، وعظمت في الخير حسبتهم، فسارعوا عباد الله إلى مريضة ربكم وإلى إحدى الحسين: إما الشهادة وإما الفتح والغنيمة»^(٢).

ويذكر البلاذري أن أبا بكر كتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بسجد والحجار يستنفرهم للجهاد ويرعبهم فيه وفي عاثم الروم فسارع الناس إليه من بين محتسب وطامع، وأتوا المدينة من كل أوب^(٣)

ويذكر الطبري أنه «قَدِمَ على أبي بكر أوائل مستنصري اليمن ومن بين مكة واليمن، وفيهم ذو الكلاع، وقَدِمَ عليه عكرمة قافلاً وغزياً فيمن كان معه من

(١) الطبري ٢٠١٧/١.

(٢) الوثائق السياسية ١٣٠٢ نقلًا عن أبي حنبل في تاريخ صحيح ابن حبان

(٣) فتح البندان ١٠٦.

تهامة وعُمان والبحرين والسرو، فكتب لهم أبو بكر إلى أمراء الصدقات أن يبدلوا من استبدل، فكلهم استبدل فسُمي جيش البدال^(١).

يدل سياق كلام سيف أن جيش البدال كان من العشائر التي شارك رجالها في قتال المرتلة مع عكرمة، وأن رحله لم يشاركوا في القتال الثاني، وإنما أبدلوا بمن لم يشارك فيها من عشائهم.

أما عمرو بن العاص فسار معه ثلاثة آلاف، ثم تابع أبو بكر إمداده وغيره من القواد حتى صار معه سبعة آلاف وخمسمائة^(٢).

والجدير بالذكر أن البلاذري يقول اكن كل أمير في بدء الأمر على ثلاثة آلاف رجل، فلم يزل أبو بكر يتبعهم الإمداد حتى صار مع كل أمير سبعة آلاف وخمسمائة، ثم تنام جمعهم بعد ذلك أربعة وعشرين ألفاً^(٣).

ويقول ابن سعد إن أول الأمراء الذين خرجوا إلى الشام خرجوا من سبعة آلاف وهم جمهور من انتدب لهم ومن جند سهيل بن عمرو وأتباعه من أهل مكة وكان من جيشه أبو إمامة الباهلي، وكان أبو بكر يحير الناس للالتحاق بمن يحبون، ووجهه يريد إلى اللقاء واجتمع إلى أبي بكر أناس فأمر عليهم معاوية وأمره باللاحاق بيزيد^(٤).

ويروي سيف بن عمر أنه قديم على أبي بكر إثر هزيمة خالد بن سعيد في زيزاء أوائل مستنصره من بين مكة واليمن وفيهم ذو الكلاع، وقديم عليه عكرمة

(١) ابن حنبل ٤٥١/١، وقد يكون للبدال علاقة بالأبدال الذين يذكر ابن منظور أنهم قوم من الصالحين بهم يقيم إليه الأرض أربعون في الشام وثلاثون من سائر البلاد، ولا يموت منهم أحد إلا قام مكانه آخر وذلك سمو الأبدال ابن شميل عن علي الأبدال بالشام والسجاء بمصر والعصائب في العراق والبال حيرى ابن السكيت، يسمى المبررون في الصلاح أبدالاً لأنهم أبدلوا من السلف الصالح (نسان العرب ٥٠/١٣)، وانظر ابن حنبل ١١٢/١، ٣٢٢/٥، ٢١٦/٦.

(٢) الطبري ٢٠٨٢/١، ٢٠٨٣، ٢٠٨٤.

(٣) فتوح البلدان ١٠٧، ويذكر ابن أعمش أنه صار مع عمرو خمسة آلاف ١٢٤.

(٤) الطبري ٢٠٨٤/١، ٢٠٨٥.

قافلاً وفانياً فيمن كان معه من تهامة وعمان والبحرين والسرو. وعند ذلك احتاج أبو بكر للشام وعناه أمره^(١).

ويروي الوليد بن مسلم أنه بعد القضاء على خطر حركات الردة جاءت أبا بكر وفود العرب مجتمعة على الإيمان بالله والإقرار بتوحيده والعمل بفرائضه وجهاده فدعاهم إلى جهاد تبصر وكسرى فأجابهم إلى ذلك جماعة من المهاجرين والأنصار ومهاجرة الفتوح وأمداد أهل العالية واليمن، فاجتمع له منهم أربعة وعشرون ألفاً، وولّي عليهم الأمراء، فمضوا لما وجههم إليه^(٢).

وكان أبو بكر كلما قَدِمَ عليه وفد من العرب وجههم إلى بلاد الشام^(٣).

ويقول ابن أعمش أنه «انتدب إلى أبي بكر خلق كثير من همدان وأسلم وعقار ومزينة ومراد والأزد وجميع القبائل»^(٤) «وجعل الناس يجتمعون إلى هاشم بن عتبة بن أبي وقاص حتى صار له قريب من ثلاثة آلاف، وكان منهم قيس بن جبر»^(٥).

ويقول أيضاً إن أبا بكر أرسل سعيد بن هشيم في سبعمائة ومعه بلال، ثم سار سعيد بن عامر في ألفي رجل ولحق بأبي عبيدة بن الجراح^(٦).

يقول البلاذري «كان كل أمير في بدء الأمر على ثلاثة آلاف رجل»^(٧)، حتى تمام جمعهم بعد ذلك أربعة وعشرين ألفاً^(٨).

ويذكر ابن أعمش أن عمر أمدد المقاتلة من الشام بثلاثة آلاف فارس عليهم سويد بن الصامت^(٩)، وأن سعيد بن رفاعة الحميري قَدِمَ المدينة مع

(١) ابن عساکر ١/ ٢٥١.

(٢) ابن عساکر ١/ ٢٥٠ خروج البلدان ١٠٧.

(٣) ابن أعمش ١/ ١١٩.

(٤) ابن أعمش ١٠٤.

(٥) ابن أعمش ١/ ١١٤، ١١٦.

(٦) ابن أعمش ١١٩.

(٧) ابن أعمش ١٢٣.

(٨) ابن أعمش ١/ ١٢٣.

(٩) ابن أعمش ١/ ١٢٢.

قومه من جُمَيْر فسَيَّره عمر إلى قتال الروم^(١)، والراجع أن ذلك كان قبل اليرموك.

القادة

تطلبت الأعداد الكبيرة التي تقدمت للمشاركة في الحركات العسكرية والفتوح أن تنظم لها قيادات. وذكرت المصادر معلومات وافية عن القادة الأولين الدين ولأهم أبو مكر في تنظيمه الأول، وهي تنفق على أن هؤلاء القادة كانوا خالد بن سعيد بن العاص، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة، وأبا عبيدة بن الجراح وعكرمة بن أبي جهل، ثم انضم إليهم خالد بن الوليد قادماً من العراق، غير أن المصادر تقدم معلومات متباينة عن زمن تعيين كل منهم والجهة التي أوكل إليه التقدم إليها، وعدد القوات التي كانت بإمرة كل منهم ولم يكن فيهم من قاد جيشاً للقضاء على الردة غير عكرمة. ولم يول قائدًا عاماً.

(١) ابن أحم ١/١٤٩.

الفصل الثاني عشر

القواد والمعارك الأولى

القادة الأولون

بذكر الزهري، وسعيد بن المسيب والوافدي وأبو زرعة أن أبا بكر بعث خالداً (ابن الوليد) على جيشه قبل العراق، وبعث إلى الشام ثلاثة أمراء: خالد بن سعيد بن العاص على جند، وحمرو بن العاص على جند، وشرحبيل بن حسنة على جند فلم يرل حمرو بأبي بكر حتى عاد يزيد بن أبي سفيان على جند^(١). وينقل موسى بن عقبة رواية الزهري هذه ويضيف «ثم نزع خالد بن سعيد، وأمر على جنده يزيد بن أبي سعيد، فأدركه بذي المروة»^(٢)

ويقول ابن شمة إن أول لواء عقده أبو بكر لواء خالد بن سعيد بن العاص^(٣). ويقول الوليد بن مسلم تعليقاً على رواية الزهري إن «الأئت هو أن يزيد ولي القيادة قبل أن يسير الجيش إلى الشام»^(٤).

وذكر ابن إسحاق أن أبا بكر ولي كلاً من حمرو بن العاص وأبي عبيدة وشرحبيل بن حسنة

(١) ابن عساکر ٤٤٨/١، وانظر ٤٤١/١، ابن أئثم ١١٢/١، فتح البلدان ١٠٧.

(٢) ابن عساکر ٤٥٣/١ - ٤.

(٣) الطبري ٢٠٧٩/١ وهو ابن شمة، ابن سعد ٣ - ٢/١٦٨.

(٤) ابن عساکر ٤٥٣/١ - ٤.

وذكر سعيد بن المسيب والواقدي أن أبا بكر عقد لثلاثة قواد: عمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة^(١).

وذكر المدائني أن أبا بكر أعتد يزيداً وشرحبيل وأبا عبيدة^(٢)

وذكر ابن أحنم أن الأمراء كانوا معاد بن جبل، وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان^(٣). ولم يذكر غيره ولاية معاذ ويقول سيف بن عمر إن أبا بكر اتع يزيداً وشرحبيل بن حسنة ثم أبا عبيدة^(٤).

تتفق هذه الروايات على أن أوائل من ولّوا قيادة الجيوش في جهة بلاد الشام هم خالد بن سعيد، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة، ولكنها تختلف في تحديد زمن ولايتهم ودور كل منهم، فيقول ابن إسحاق أن أبا بكر حج سنة ١٢ ثم أرسل البعوث^(٥)، وأنه استشار أصحابه في ربيع الأول، واستنفر أهل اليمن في ربيع الآخر^(٦)

ويروي البلاذري أن أبا بكر كان عقد هذه الألوية يوم الخميس لمستهل صفر سنة ١٣، وذلك بعد مقام الجيوش معسكرين بالجرف المحرم كله، وأبو عبيدة يصلي بالناس^(٧).

إن خالد بن سعيد بن العاص كان أبوه من المسلمين الأوائل، وممن هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية^(٨)، وظل فيها إلى أن عاد مع أصحابه بعد صلح الحديبية وكان خالد من كتاب الرسول (ص)، وكتب له معظم الكتب التي

(١) ابن صاكر ٤٠٥/١، ٤٤٧، وانظر فتوح البلدان ٣٧.

(٢) الطبري ٢٠٤٧/١.

(٣) ابن أحنم ١٠٢/١.

(٤) الطبري ٢٠٨٥/١.

(٥) الطبري ٢٠٧٨/١.

(٦) تاريخ خليفة ٨٧ (ص ابن إسحاق)، تاريخ الأردني ٩٠، ابن صاكر ٤٤٥/١.

(٧) فتوح البلدان ١٢٨، الطبري ٢٠٧٨/١.

(٨) تاريخ خليفة ١٦٢ ابن سعد ٣ - ١١٣٩/١ بعية المسجد ٩.

وجهها الرسول (ص) إلى أهل اليمن، ثم ولّاه الرسول (ص) صدقات مراد وزيد ومذحج في اليمن،^(١) كما ولّى أخوته: أبا على المحرّين، وعمراً على تيماء ووادي القرى وحبير وقرى عربية، والحكم على السوق^(٢). ولما توفي الرسول (ص) عاد إلى المدينة، وتلكا في مبايعة أبي بكر الذي ولّاه قيادة جيش توجه إلى تيماء وكتب له أني قد استعملتك على من مررت به من بني وعذرة وسائر قضاة ومن سقط هناك من سائر لعرب، فأنذبتهم إلى الجهاد ورجبتهم فيه فمن سقط منهم فاحمله وزوده ورافق بهم واجعل كل قبيلة على حدة وعمل على ضم القبائل العربية حول تيماء إلى جيش الإسلام، وكان عمر معارضاً لتوليته على أن فيه ضعفاً^(٣)، وكان أول الأمراء الذين خرجوا إلى الشام^(٤). وكان ممن معه سهيل بن يزيد بن عمرو وأشباهه من أهل مكة^(٥) وأدرك الروم خطرهم فوجهوا إليه قوة بقيادة ناهان تطلبت عليه في رضاء عند أبي الريح فانهزم إلى ذي المروة^(٦) داخل الحجاز، على سبيل ميلاً من المدينة، وظل مقيماً فيها مع جنده إلى أن أمره أبو بكر بالعودة والانضمام إلى الجيوش الإسلامية، وقتل في أجنادين مع أخيه أبا^(٧).

أما عمرو بن العاص السهمي فهو من دعاة العرب، أسلم بعد صلح الحديبية، وأرسله الرسول (ص) إلى عُمان لإسناد حاكمها الجلندي الذي أعلن انضمامه إلى الإسلام ودولته، ثم عاد إلى المدينة فولّاه الرسول (ص) صدقات قضاة القاطنة في الأطراف الشمالية الغربية من بلاد الشام.

(١) فتح البلدان ١١٨.

(٢) ابن سعد ٣ - ٢/٦٦٨ الطبري ٢٠٧٢/١ عن ابن شبة

(٣) ابن عساکر ٥١/٣٤

(٤) الطبري ٢٠٨٤/١

(٥) ابن سعد ٣ - ٢/١٧٠ ابن عساکر ٣٤٣/١

(٦) ابن سعد ١ - ٢/٦٦٦ ابن عساکر ٤٤٨/١، ٤٥٤.

(٧) ابن عساکر ٣٥٩/٣٤

فأما شرحبيل بن حسنة فأصله من كسلة، سكن مكة حليفاً لني جمح، وهاجر مع إخوته إلى الحبشة في الهجرة الثانية، وعاد منها مع جعفر بن أبي طالب بعد صلح الحديبية^(١) ولم يذكر له دور ملحوظ في زمن الرسول (ص) سوى أنه ممن شهد كتاب صلح يوحنا بن ربيعة صاحب قضاة^(٢)

ويذكر سيف بن عمر أن أبا بكر أنبع يريد شرحبيل بن حسنة ثم أبا عبيدة^(٣)، غير أنه لم يذكر له دور في أخبار الحوادث الأولى، وترد أخباره في معركة اليرموك، وما تلاها من حوادث.

أما يزيد بن أبي سفيان فهو ممن أسلم بعد الفتح، ابن رعيم قريش، وأخو أم حبيبة زوجة الرسول (ص) إلا أنه لم يذكر له دور في حياة الرسول (ص) وفي حركات القضاء على الردة، وولاه أبو بكر أحد الجيوش الثلاثة التي أعدها إلى بلاد الشام وأمره على جد عظيم وهم جمهور من انتدب له، وفي جنده سهيل بن عمرو... وكثير من أهل مكة وقد وجه إلى دمشق وتحرك إلى تبوك فالتقاء، وكان جيشه ممن أصبح في ذي المروة سبعة آلاف، وكان في الأصل ثلاثمائة، ثم أمده بالمدد، ولم يذكر لجيشه حركات بارزة في أوائل تقدمه، مما يدل على أنه لم يلق مقاومة غير أنه لما تكاثرت الجيوش كان على ريع من أرباعها^(٤) وشارك في فتح مصر^(٥) وفي معركة مرج الصفر^(٦) وفتح دمشق الأول، ثم أرسل بعدها إلى دمشق^(٧) وكان له دور بارز فيها، وكذلك كان قائداً لأحد الأرباع^(٨) وفي معركة اليرموك^(٩)، وفي فتح دمشق الثاني، ثم ولي دمشق بعد وفاة أبي عبيدة

(١) ابن سعد ٤ - ١٣٠/١

(٢) ابن عساكر ١/٢٢٠ - الطبري ١/٢٠٩٢، ٢٠٩٤.

(٣) الطبري ١/٢٠٨٥

(٤) ابن عساكر ١/٤٥٤، ٣٥٩.

(٥) ابن عساكر ١/٤٧١.

(٦) ابن عساكر ١/٤٨١.

(٧) ابن عساكر ١/٤٨٥.

(٨) ابن عساكر ١/٤٥٧.

(٩) ابن عساكر ١/٢٥٣.

أما أبو عبيدة بن الجراح فهو من المسلمين الأولين، ومن الصحابة المهاجرين؛ شارك في معظم غزوات الرسول (ص) وقاد بعض السرايا؛ وكان واحداً من المهاجرين الثلاثة الذين حصروا اجتماع السقيفة، ورشحوه للخلافة فلم يوافق، وتم انتخاب أبي بكر الذي كان يوليه ثقة كبيرة، وأبقاه إلى جانبه فلم يولّه قيادة أيّ من الجيوش الإسلامية التي قصت على حركات الردة والانشقاق، ثم أنفذه في زمن لم تحدد المصادر مسار إلى التوكية، فالجابية، ويدل عدم ذكر المصادر لتواجده في المعارك الأولى على أنه أنفذ بعد القادة الأولين، ولعله أنفذ بعد معركة أجنادين وأول ذكر لدور بارز له كان في معركة اليرموك حيث ولّاه عمر القيادة العليا للجيوش الإسلامية^(١)

أما عكرمة فهو ابن أبي جهل زعيم مشركي قريش المساوئين للإسلام ثم قتل في معركة بدر، ولما فتح الرسول (ص) مكة هرب عكرمة إلى الجنوب، ثم عفا عنه الرسول (ص) استجابة لالتماس أمه، ولما وليّ أبو بكر الخلافة أنفذه للمقضاء على ردة أهل عُمان وحضرموت^(٢) فأنجز مهمته بنجاح بعد جهود كبيرة^(٣). ثم أنفذ لنجدة زياد بن لبيد البياضي في حضرموت ثم عاد إلى المدينة قافلاً، وغازياً فيمن كان معه من أهل نهامة وعمد والبحرين والسرو، فأمر أبو بكر باستدائهم، وسُمّي جيشهم جيش البدار^(٤)، ثم أنفذه أبو بكر بعد هزيمة خالد بن سعيد^(٥).

ومن القواد البارزين في جهة بلاد الشام خالد بن الوليد، قام بانتصارات عظيمة في القضاء على معظم حركات الردة والانشقاق في الجزيرة، ثم قام بحركات ناجحة في غرب العراق، ثم طلب منه أبو بكر أن يلتحق ببلاد الشام وينضمّ إلى قادتها، فسار مسرعاً قطعاً الصحراء في مسالك صعبة اختلفت الروايات في وصفها، وشارك منذ وصوله جهة بلاد الشام بدور متميز في المعارك كافة، فاستحق بجدارة أن يعتبر أعظم قائد أبجبه الإسلام.

(١) فتح البلدان ١٦٢، الطبري ١/٢٠١٣.

(٢) الطبري ١/١٩٧٧، ١٩٨٠، ٢٠٠٧.

(٣) الطبري ١/٢٠٠١.

(٤) ابن عساکر ١/٥٤٨ - ٤٥١.



الفصل الثالث عشر

الحركات الأولى ومعاركها

تتفق الروايات على أن أول جيش إسلامي أنفذه أبو بكر بعد جيش أسامة هو الذي وليه خالد بن سعيد بن العاص وكان لواءه أول لواء عقده أبو بكر^(١). وكان أبو بكر قد عين خالداً على تيماء وأمره أن لا يبرحها وأن يدعو من حوله بالانضمام إليه، فجمع جموعاً كثيرة^(٢)، ويروى أنه كان معه سهيل بن يزيد بن عمرو وأشباهه من أهل مكة فوجه إليه الروم قوة بقيادة باهان تعلت عليه في زيزاء عند جبل الرمث فانهزم إلى ذي المروة داخل الحجاز^(٣)، وهي على ستين ميلاً من المدينة^(٤).

ولما بدأت استجابة العرب لدعوة أبي بكر، اجتمع إليه أربعة وعشرون ألفاً من المهاجرين والأنصار ومهاجرة الفتح أمداد أهل اليمن، فعقد الأولوية للأمراء الذين اختارهم للقيادة، وكان عقد هذه الأولوية يوم الخميس لمستهل صفر سنة ١٣ بعد مقام الجيوش معسكرين بالجرف المحرم كله، وأبو عبيدة يصلي بالناس^(٥).

(١) ابن سعد ٣ - ١١٦٨/٢ الطبري ٢٠٧٩/١ ابن شبة ١ ابن عساکر ٤٤٨/١ عن ابن إسحاق

(٢) الطبري ١٢٠٨٠/١ ابن عساکر ٤٥١/١

(٣) الطبري ٢٠٨٥/١

(٤) ابن سعد ٣ - ١١٧٠/٢ ابن عساکر ٣٤٣/١، ٤٥٤

(٥) فتوح البلدان ١٠٦، ١٠٧.

ويذكر سيف بن عمر أن خالد بن سعيد عندما هزمه باهان في تيماء قديمً وافداً من عند خالد بن الوليد بن عقبة على بعض قضاة، مما يشير إلى تأخر إسهامه في الحركات الأولى من فتوح الشام،^(١) وإلى أن إسناده يدل على أن ميدان حركاته كان في الجهات الشرقية، ويذكر ابن عساكر أنه حضر فتح بصرى،^(٢) ومعركة أجادين واليرموك،^(٣) حيث كان على أحد أرباع الجيش،^(٤) وكان من شهود فتح دمشق.

ذكر سيف بن عمر أنه بعد هزيمة خالد بن سعيد في زيزاء «اتخذ أبو بكر أبا عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وأوكل كلاهما بالغارة وألا يوغلوا حتى لا يكون وراءهم أحد من عدوهم»^(٥)، وذكر أيضاً أن أبا بكر استعمل يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح على من اجتمع إليه، وأمره على حمص،^(٦) ويذكر أن أبا عبيدة كان معه سبعة آلاف،^(٧) ويذكر ابن أعمش أن أبا عبيدة سلك الطريق من المدينة إلى وادي القرى، فالأقرع من بلاد الحجر، فالمنار، فالأخضر، فجنيبة، فتهبوك،^(٨) صير أن أبا عبيدة بن الجراح لم يذكر في أخبار المعارك الأولى، وأول ذكر له كان في معركة اليرموك، مما قد يدل على أنه لم يكن من أول القواد الذين اتعدوا في أولى الحملات.

يقول سيف بن عمر إن أبا بكر اتع يزيداً شرحبيل بن حسنة، ثم أبا عبيدة ممدداً له،^(٩) وذكرت بعض الروايات أن الأمراء على الشام كانوا ثلاثة: عمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة.^(١٠) وذكر المدائني أن

(١) ابن عساكر ٤٧٠/١

(٢) ابن عساكر ٤٧٩/١، الأردى ٣٧٢

(٣) الأردى ١٨٨، ٢٠٦، ابن عساكر ٤٤٠/١

(٤) الأردى ١٨٨، ابن عساكر ٤٤٠/١.

(٥) الطبري ٢١١١/١.

(٦) الطبري ٢٠٨٤/١

(٧) الطبري ٢١٠٧/١

(٨) ابن أعمش ١٨٥/١ وانظر في وصف جمرية المنطقة اشمال الحجاز لعبد الله الوهي.

(٩) الطبري ٢٠٨٥/١.

(١٠) ابن أعمش ١١٢/١ - ١٣ ابن عساكر ٤٤١/١

«شرحبيل كان في سبعة آلاف»^(١)، ولكنه لم يذكر العشائر التي ينتسب إليها جيشه ويذكر سيف أن شرحبيل برل الأردن^(٢)؛ ولم تذكر الأخبار دوراً بارزاً لشرحبيل في حوادث المعارك الأولى، وإنما ذكرت أنه كان في اليرموك على الميمنة^(٣).

وفي وجهات هؤلاء ذكر ابن إسحاق أن عمرو بن العاص وجه إلى فلسطين، وأن يزيداً وأبا عبيدة وجهاً إلى ليلقاء^(٤)، وذكر ابن إسحاق أن شرحبيل وجه إلى البلقاء^(٥)، وذكر المدائني أن يزيداً وجه إلى البلقاء، وشرحبيل إلى بصرى، وأبا عبيدة إلى الحجابة، ثم أمّتهم بعمرو فنزل وادي العرابة^(٦).

وذكر السلازري أن عمرو بن العاص وجه إلى فلسطين، وشرحبيل إلى الأردن، ويزيداً إلى دمشق، وأن عمرو بن العاص سلك طريق إيلة إلى فلسطين أما يزيد وشرحبيل فقد وجهوا إلى تبوك^(٧).

وفي رواية السلازري أن شرحبيل وجه إلى الأردن ففتحها عسوة ما خلا طبرية، وأن يزيداً وجه إلى الأردن ودمشق، وعمرأ إلى فلسطين.

ويذكر أن أبا بكر استعمل أبا عبيدة بن الجراح على من اجتمع إليه وأمره على حمص، وأنه كان في سبعة آلاف، ولم تذكر العشائر التي تنتسب إليها مقاتله.

يذكر الطبري أن أبا عبيدة سلك طريقه، ويدل سياق الكلام على أنه سلك طريق المغيرة الذي سلكه عمرو ويقول ابن أعثم إن أبا عبيدة سلك الطريق من

(١) الطبري ٢١٠٧/١.

(٢) الطبري ٢٠٩٢/١، ٢٠٩٤، ٢١٠٥.

(٣) الطبري ٢٠٩٣/١، ٢٠٩٤.

(٤) تاريخ خليفة ١٨٧: سير أعلام النبلاء ٣٧٦/١.

(٥) ابن صاكر ٤٤٩/١.

(٦) الطبري ٢١١١/١/١.

(٧) الطبري ٢٠٨٤/١.

المدينة، فوادي القرى، فالأقرع من بلاد الحجر فالصار، فجنيّة فتبوك^(١).
ويقول الطبري إن أبا عبيدة كان في اليرموك في القلب^(٢).

يقول سيف إن شرحبيل بن حسنة قدم فندب معه الناس ثم استعمله أبو بكر
على الوليد فقدم شرحبيل على خالد ففصل بصحابه إلا القليل^(٣). ويقول أيضاً
إن أبا بكر اتبع يزيداً شرحبيل بن حسنة، ثم أبا عبيدة ممدداً له، وهذا يظهر أن
شرحبيل أرسل قبل أبي عبيدة، ومما يؤيد هذا أن عدداً من الروايات ذكرت أن
الأمراء على الشام كانوا ثلاثة: عمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان،
وشرحبيل بن حسنة، ويذكر أن شرحبيل أرسل ردة لحالد بن سعيد^(٤).

ويذكر المدائني أن شرحبيل كان في سبعة آلاف، ولكنه لم يذكر العشائر
التي ينسب إليها الرجال في جيشه^(٥) ويذكر سيف أن شرحبيل سلك
طريقه^(٦)، ولعله يقصد طريق التوكية الذي ملكه يزيد، وأن شرحبيل نزل
الأردن ويقال بصرى^(٧)، وكان شرحبيل في اليرموك على الميمنة^(٨).

ويذكر ابن إسحاق أن شرحبيل ويزيد وأبا عبيدة سلكوا التوكية^(٩). ويذكر
ابن أعمش أن أبا عبيدة صار من المدينة فوادي القرى فالأقرع فالصار فالجنيّة
فتبوك، وتوجه إلى الحجابة^(١٠).

(١) الطبري ٢١٠٧/١.

(٢) الطبري ٢٠٨٥/١.

(٣) ابن أعمش ١٥٠/١.

(٤) الطبري ٢٠٩٣/١.

(٥) الطبري ٢٠٨٥/١.

(٦) ابن عساکر ١٤٤٧/١ ابن أعمش ١٠٢/١ - ٣.

(٧) الطبري ٢١٠٧/١.

(٨) الطبري ٢٠٩٣/١، ٢٠٩٤.

(٩) الطبري ٢١٠٨/١.

(١٠) ابن أعمش ١٥٠/١.

تقدم القوات العربية إلى فلسطين

كان عمرو بن العاص من أسبق القواد في التقدم إلى جبهة بلاد الشام، ولا بد أنه كان من القوة التي قادها عدد من رجال قضاة، إذ إن أبا بكر كان قد كتب له «إني قد استعملتك على من مررت به من يلي وعدرة وسائر قضاة، ومن سقط هناك من العرب، فإندأهم على البر والجهاد، فمن تبعك منهم فأهله وزوده، ورافق بينهم، واجعل كل قبيلة على حدتها ومنزلتها»^(١) وذكر أيضاً أن عمرو بن العاص عندما تحرك إلى بلاد الشام قدم أمامه مقدمة عليهم سعيد بن الحارث السهمي، ودفع لواءه إلى الحجاج بن الحارث السهمي، وكان جند عمرو الذين خرجوا معه من المدينة ثلاثة آلاف، فيهم ماس كثير من المهاجرين والأنصار، وقد تم جمع هذه القوات بالليل.

ويتبين من هذا أن عماد القوة التي ساربت مع عمرو بن العاص هي عشائر يلي وعدرة ومن بقربهما، وانضم إليها كثير من المهاجرين والأنصار من أهل المدينة، رتبوا تبعاً لانتماثلهم القبلي «كل قبيلة على حدتها ومنزلتها وللهمجين مكانة خاصة في القيادة. وعددهم ثلاثة آلاف، ثم أوردوا قوات أخرى، لعل كثيراً منها من أهل اليمن، فأصبحوا سبعة آلاف وخمسمائة»^(٢).

سلك عمرو بن العاص في تقدمه طريق المُعَرِّقة، وهو الذي كان يسلكه الحاج المصري فيما بعد، وهو طريق يمر بأرض قليلة المدن والسكان، وليست فيها حاميات رومية، فمؤخرته مؤمنة ووصل إلى أيلة، وهي ميناء العقبة الحالي، وتقع على رأس الخليج المسمى بها حالياً، وكانت ميناء رئيساً وعليها والي، ولم تكن بها حامية رومية فاستسلمت للعرب.

ثم توجه منها إلى غزة، وهي آخر ميناء كبير في الأطراف الغربية من

(١) ابن سعد ٣ - ٢/١٢٠٠ ابن عساكر ١/٣٤٢.

(٢) ابن أعثم ١/١٢٣ ابن عساكر ١/٤٥٢، ٤٤٦، وانظر تاريخ خليفة ٨٢.

فلسطين وكانت إحدى المحطات الثلاث الكبرى لتجارة مكة قبل الإسلام^(١)، وفيها دفن هاشم جد الرسول (ص)، واشتبك في طريق تقدمه مع قوة تبلغ ثلاثة آلاف عليها بطريق (حاكم) ودحرها في معركة عند الدائن، على بعد اثنين وأربعين ميلاً منها، فاضطر البطريق إلى طلب الصلح^(٢). ويقول البلاذري نقلاً عن الواقدي إن أبا عبيدة وشرحبيل شاركوا في هذه المعركة^(٣). ولقد نبه انتصار عمرو بن العاص في الدائن الروم إلى خطر تقدم العرب الذي يهدد فلسطين والقدس.

معركة وادي العرابة

أدرك عمرو بن العاص قوة الروم الجديدة فلم يشتك معهم في قتال ثانٍ، وانسحب إلى وادي العرابة قرب البحر الميت^(٤)، وطلب من أبي بكر إمداده بقوات^(٥).

وأدرك الروم قوة العرب واندماهم وعملوا على صدّها، فانتقل هرقل من القسطنطينية إلى حمص وحشد حيث قوامه ثلاثة آلاف مقاتل عليهم ستة قواد من الروم^(٦) على رأسهم أخوه تيودور، وسمي العرب ثادرق؛ وقرر الالتفاف على القوات العربية من الجنوب، واحتار لعسكره وادي العرابة، وهي رقعة من الأرض بين الرملة ووادي جبرين قريبة من نهر اليرموك، ويجري عندها وادي السمط وهو وادٍ عريض تسيطر عليه خربة يرموث الواقعة فوق رابية متموجة تنحدر نحو الوادي، وحصنوا منطقة نزولهم وحفروا الخنادق حولها، وهذه

(١) انظر كتاب «تجارة مكة» لكرن ١١٩ - ٢٠.

(٢) ابن عساكر ٤٦١/١ (عن الوليد بن مسلم).

(٣) فتوح البلدان ١٠٨ عن الواقدي.

(٤) تاريخ خليفة ١١٠٨ الطبري ٢١٢٥/١.

(٥) فتوح البلدان ١٠٨.

(٦) فتوح البلدان ١١٠٨ ابن عساكر ٤٦١/١ تاريخ الأزد ٧٧.

المنطقة تهيئ على ملتقى الطرق الممتدة بين جبرين من جهة وكل من غزة، وبيت المقدس والطورون؛ ووضع الروم قوة في ثنية جلق في جنوب الجابية على الطريق بين دمشق وأذرعات لتأمين مؤوية قواتهم، إذا أدهمتهم قوات شرحيل ويزيد بن أبي سفيان. ويروي أبو مخنف أن الروم في العرب كانوا ثلاثة آلاف عليهم ستة قواد من الروم.

أدرك العرب خط تحركات جيش الروم، وكانت لهم فيها قوات يزيد بن أبي سفيان، وهي لا تكفي لدحر الروم؛ وأنفذوا أباً أمة الباهلي فأوقع بهم وقتل أحد قادتهم،^(١) لكن إنجازهم لم يكن حاسماً، فجمعوا قواتهم التي بإمرة يزيد بن أبي سفيان، وشرحيل، وعمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح؛ واشتبكوا مع الروم في معركة انتصروا فيها عليهم وقتلوا أحد قادتهم، ولم تذكر المصادر من قتل من العرب فيها، مما يدل على أنها لم تكن كبيرة أو حاسمة، وترجع أهميتها إلى أنها أول معركة واسعة مع جيش أمية هزله هزلاً.

قدوم خالد وقواته

قدم خالد بن الوليد بعد أن أمره أبو بكر بترك حركاته في جهة العراق، والتوجه إلى بلاد الشام، فقطع مع قواته بادية سالكاً مسالك صحراوية خطيرة، وردت عنها عدة روايات^(٢)، وكان أول ما قام به عند وصوله العارة على عسان في مرج راهط، فدان له أهلها^(٣) وكانت عارته في ١٩ صفر سنة ١٣، ثم اقترب من دمشق فصالحه بطريقها على ماله، وتابع مسيرته إلى بصرى وهي في أدنى بلاد الشام^(٤). وكانت لها أهمية خاصة لتجار قريش فكانوا يقصدونها لتجاراتهم وإليها سافر الرسول (ص) مرتين قبل الإسلام؛ فهاجمها خالد

(١) فتح البلدان ١٠٨

(٢) انظر: «الفتح الإسلامية» لدونر؛ وانظر لألوانوزيل

(٣) فتح البلدان ١٢٦؛ الطبري ٢١٠٣/١، ٢١٧٢

(٤) الطبري ١١٠٧/١.

وفتحها، وسُرَّ قَتَحُها السيطرة على حوران وأذرعَات^(١) والبثنية المشهورة بالحنطة التي تنتجها، وقَدِمَ عليه في بصرى يريد من أبي سفيان، وأبو عبيدة، وشرحبيل. ثم تقدَّم مسنداً لعمر بن العاص^(٢) وشارك في المعارك التالية كافة وانتصر فيها.

وصالح أبو عبيدة، مأب من أرض البقاء كصلح بصرى^(٣).

معركة أجنادين

لما انتصر العرب في وادي العربة وبصرى وحوران أصبحوا مهيمين على معظم فلسطين والأردن والأطراف الجنوبية من بلاد الشام دون أن يقاومهم أهل البلاد وإنما أظهروا تعاطفاً معهم؛ وأدرك الروم الخطر الذي يهدد سلطانهم فعملوا على صدّه، وأرسلوا قواته تجمعت في أجنادين من كورة جبرين على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً جنوب شرق بيت المقدس، بينها وبين الرملة وجرش وبيت جبرين^(٤). وهي تقع عند خربة يرموث قرب اليرموك، وفيها ملتقى الطرق بين بيت جبرين وبيت المقدس وغزة واللطرون والرملة، وأرضها متموجة غير وعرة تصلح لتجمع قوات كبيرة ونسهل فيها حركة الخيالة وتقع حربة يرموث فوق رابية تنحدر نحو وادي السمط العريض الذي يمتد جنوبها مكوناً خطاً دفاعياً. وتمتد في أطرافها الجنوبية رواب تسمى الجنابتين اتخذ عليها العرب مواقعهم في المعركة؛ وهي جنوب الطريق الموصل بين بيت المقدس وقيسارية^(٥).

تحرك جيش الروم من حمص يقوده ثيودور، أخو الامبراطور، وتسميه

(١) فتوح البلدان ١١٠، وانظر عن حوران ١١٢ - ٣.

(٢) الطبري ٢١٢٥/١.

(٣) فتوح البلدان ١٢٥.

(٤) معجم البلدان ١/٣٧٥، تاريخ خليفة ٥٧، لأزدي ٢١٨، سير أعلام النبلاء ١/١٨.

(٥) نظر المقال القيم عن أجنادين للمعيد طه الهاشمي المنشور في مجلة لمجتمع العلمي

لعراقي، انظر تاريخ خليفة ١٨٧، فتوح البلدان ١٧، ابن عساکر ٤٤٧/١.

المصادر العربية تذارق^(١). وصنع الروم قوة في ثبة جلق جنوب الحجابية على الطريق بين دمشق وأذرععات لمراقبة القوات الإسلامية وبدو أنهم كانوا يستهدفون حماية بيت المقدس.

أما العرب فتقدموا من وادي العربة، وتجنبوا المدن المحصنة وعسكروا في الجنابتين، وهي الهضبة الجنوبية عند وادي السمط، لا أن الروم سبقوهم في احتلال الروابي الشمالية^(٢).

تتفق الروايات على أن الالتحام بين العرب والروم حدث في جمادى الأولى سنة ١٣، وهو يصادف تموز، غير أنها تختلف في تحديد يوم حدوث المعركة^(٣)، وكانت المعركة حامية وذكرت المصادر أسماء عدد كثير ممن استشهد من المسلمين فيها، ويروى أن عدد القوات الإسلامية كان حوالي العشرين ألفاً. وكانت قيادة الجيوش العربية لعمر بن العاص، وعلى الميمنة معاذ بن جبل، وعلى الميسرة سعيد بن جديم، وعلى جناح الميمنة يزيد بن أبي سفيان، وعلى جناح الميسرة شرحبيل بن حسنة^(٤).

وقد أسفرت المعركة عن اندحار قوات الروم، فانسحبت فلولهم إلى قيسارية وغزة ودمشق.

كانت معركة أجنادين أولى المعارك الكبيرة التي انتصر فيها العرب على الروم، وشارك فيها معظم القوات الإسلامية، التي تبلغ قرابة عشرين ألفاً

(١) تاريخ خليفة ٨٧ عن إسحاق

(٢) تاريخ خليفة ١٨٧ فتوح البلدان ١١٢، ابن عساکر ٤٤٧/١.

(٣) ابن إسحاق (تاريخ خليفة ٨٧)، والواقدي (تاريخ الأردني ٤٦)، تاريخ البغوي ١١١٣/٢ تاريخ الإسلام للدعي ١٧٥/١

(٤) ابن عساکر ٤٧٩/١ (عن ابن إسحاق)، الطبري ٢١٢٦/١ لأردني ٢٦١، وانظر دراسات طه الهاشمي، ويبحث دي غويه عن فتح العرب للشام.

معركة فحل:

أظهر انتصار العرب في أحقادين قوتهم وعزمهم على توسع دولتهم وإزاحة الروم، بعد أن أمن سيطرتهم على فلسطين والأردن، وبشر تقطعهم إلى دمشق. وكان لهذه المعركة وقع مؤثر في هرقل، فيروي البلاذري أنه عندما وصل إليه خبر اندحار الروم في أجنادين «بخط قببه، وسقط في يده وارتعب، فانتقل من حمص إلى أنطاكية، واستنصر الأرمن فلم يستجيبوا له لتأخره في دفع رواتبهم، كما استنفر عرب الجزيرة وبعث إليهم رجلاً من خاصته وثقاته»^(١). وبدل استنصار الأرمن وأهل الجزيرة على ضعف أمه في الاعتماد على المستعربة من عرب حبوب بلاد الشام، فأراد الاعتماد على قوات من شمال بلاد الشام، ولم تذكر المصادر أفراداً أو جماعات من العرب كانوا مع الروم في معركة فحل^(٢).

يذكر سيف بن عمر أن قائد الروم سقلاز بن مخراق، يليه في القيادة نسطورس ويرى دي غويه أن نسطورس تحريف أستاسيوس، وأن سقلاز هو تحريف كابيلاروس، وهو لقب رئيس التشرقات.

ذكر البلاذري أنه قتل من الروم في معركة فحل قائلهم «وزهاء عشرة آلاف معه، وتفرق الباقون في مدد الشام، ولحق بعضهم بهرقل»^(٣)، وقد يكون في هذا الرقم مبالغة، إلا أنه يشير إلى لعدد الكبير الذي حشده الروم في المعركة، وربما كان عددهم حوالي العشرين ألفاً.

ووردت روايات مختلفة عن قائد لقوات العربية في معركة فحل، فروي ابن

(١) فتوح البلدان ١١٤

(٢) تاريخ خليفة ٨٨، فتوح البلدان ١١٥، ١١٨ تاريخ دمشق لابن عساكر ٤٧٨/١ - ٤٨١ (عن موسى بن عفيف). ويذكر خليفة أنها حدثت في ٢٨ ذي الحجة (ابن عساكر ٤٨٠/١)، أما ابن إسحاق فيذكر أنها حدثت في جمادى الأولى، تاريخ خليفة ٨٨: ابن عساكر ٤٨١/١.

(٣) فتوح البلدان ١١٤

حساكر أن الروم عندما تقدموا إلى فعل لحقهم عمرو بن العاص^(١)، وفي هذا إشارة إلى أن عمرو بن العاص كان قائد لقوات. وفي رواية أن القائد العربي كان أبا عبيدة، وعلى الجراح عمرو بن العاص وعلى الخيالة ضرار وعلى المقدمة خالد بن الوليد^(٢).

وذكر ابن إسحاق أن الأمير في فعل كان خالد بن الوليد^(٣).

وفي رواية أنه كان على الناس شرحبيل بن حسنة، وعلى المقدمة خالد وعلى المجنئين أبو عبيدة وعمرو بن العاص، وعلى الخيل ضرار وعلى الرجل عياض، وفي رواية أن أبا عبيدة سرح القادة: أبا الأهور السلمي، وعمرو بن يزيد الجرشي، وعامر بن حثمة، وعمرو بن كليب اليحصبي، وهمارة بن مخش. وقيادة أبي عبيدة للمعركة تعني أنها حدثت بعد اليرموك، وهو ما يشك فيه

وذكر البلاذري أن وقعة فعل كانت لليلتين بقيتا من ذي القعدة وأمير الناس أبو عبيدة بن الجراح، وقد كان عمر بن الخطاب كتب إليه بولايته الشام وإمرة الأمراء، ويذكر في رواية أخرى أن خالد بن الوليد كان أمير الناس في الحرب. كما يذكر أن الذي تولى العقد مع أهل فعل أبو عبيدة بن الجراح، وقال تولاه شرحبيل بن حسنة^(٤). ويذكر بن أعثم أن خالد بن الوليد كان في الميمنة ويريد بن أبي سفيان وشرحبيل في الميسرة، كما يذكر أن قيس بن هيرة وهاشم بن عتبة شاركا في المعركة^(٥).

ويروي سيف بن عمر أن على الناس شرحبيل بن حسنة، فبعث خالداً على المقدمة، وأبا عبيدة وعمرأ على مجنئيه، وعلى الحيل ضراراً، وعلى الرجل عياضاً^(٦). ويقول في مكان آخر، سرح أبو عبيدة إلى فعل القادة: أبا

(١) ابن أعثم ١/١٨٠ ابن عساكر ١/٤٤٧، ٤٨١

(٢) تاريخ خليفة ١٨٨ الطبري ١/٢١٤١ تاريخ الإسلام للسعي ٢/٤٧٧.

(٣) تاريخ خليفة ١٨٨ تاريخ الإسلام للسعي ١/١٧٦

(٤) فتوح البلدان ١١٤.

(٥) الطبري ١/٢١٥٧ ابن عساكر ١/٤٨٦ ابن أعثم ١/١٨٠ الطبري ١/٢١٤٦.

(٦) الطبري ١/٢١٥١ ابن عساكر ١/٥١٤

الأعور السلمي، وعمرو بن يزيد الجرشي وعامر بن حثمة، وعمرو بن كليب، وعمار بن مخش قائد الناس ومع كل رجل خمسة قواد.

إن مشاركة كل القواد العرب اibarرين في موقعة فحل يدل على أن كافة القوات العربية المتيسرة في جهة بلاد الشام، شاركت فيها، وخصوصاً أن المصادر لم تذكر أن العرب خلفوا مها حاميات في المناطق التي هيمنوا عليها، والراجع أن قواتهم كانت تبلغ حوالي لعشرين ألفاً، ويشير تعداد الانتصارات القبلية للقادة الذين ذكر سيف بن عمر مشاركتهم فيها إلى أنهم كانوا من عشائر متعددة، وأن العشائر التي اتسب إليها من ذكرت المصادر استشهدهم فيها يشير إلى كثرة أهل مكة ومهاجرتها في هذه المعركة.

شبت المعركة في فحل قرب يسان ولا يرال موقعها يسمى حتى اليوم خربة فحل، وهي منطقة تكثر فيها المياه، وقد كسر الروم بعضها إبان المعركة فأوحلت الأرض، ومن هذا سُمِّيَتْ في قول سيف بن عمر موقعة فحل، أو ذات الردغة، أو يسان^(١). والرفعة الماء والطين والوحل^(٢).

يروى أبو محنف^(٣) وسيف بن عمر أن فحل جرت بعد فتح دمشق، غير أن عامة الرواة من أهل الشام، وأهل الحجاز يذكرون أنها جرت بعد ثلاثة أشهر من انتصارهم في أجنادين أي في شهر ذي القعدة من سنة ١٣^(٤)؛ ويذكر ابن عساكر أن أبا عبيدة بعث ذا الكلاع بين دمشق وحمص درءاً، وبعث حكيماً ومسروقاً وعلى الخيل عياصاً، وعلى الرجال شرحبلاً، والأمير يزيد^(٥). لم يرد وصف لأحداث معركة فحل، غير أن كثرة من ذكر استشهدهم فيها يدل على ضراوة المعركة، وأنها حدثت قبل البرموك التي تحطم فيها جيش الروم، ولم

(١) ابن عساكر ٤٨٦/١

(٢) لسان العرب ٣٠٨/١

(٣) ابن عساكر ٤٨٥/١

(٤) ابن عساكر ٤٨٠/١ من الواقدي، وانظر في كتاب ابن عساكر ٤٧٨/١ عن الزهري، الوليد بن مسلم ٤٦١/١ أبو معشر ٤٨٠/١ ابن إسحاق ٤٨٠/١ وكذلك تاريخ خليفة ٨٨

(٥) ابن عساكر ٣٥/١

يذكر قتلى من بطارقة الروم. انتهت المعركة بانتصار المسلمين، وعلى أثرها تقدّم العرب إلى مدينة فعل «وكان أهلها قد تحصنوا فحاصروهم المسلمون ومن كان على ديبهم من العرب المنتصرة»^(١)، ثم استسلموا وقالوا إن الروم «قد غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا»، وهذا يظهر أن انتصار العرب الكبير كان له وقع كبير على أهل المنطقة، لدفعهم إلى تخليهم عن الروم، وإلى توجيههم إلى العرب. ويقول البلاذري أنه باسمسلام أهل فعل «أسلمت الأردن وجميع مدنه بما فيها بيسان، وسوسية، وأبيق، وجرش، والقدس والجولان»^(٢).

معركة مرج الصفر

بعد انتصار المسلمين في فعل وهيمتهم على مدن الأردن توجهوا نحو دمشق التي كانت هدفهم الرئيس، ويروى أن عمر بن الخطاب كتب إلى قواده «ابدأوا بدمشق، واهدوا إليها، فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم، واشغلوا عنكم أهل فعل بحيل تكون بإرائهم في انحورهم من أهل فلسطين وأهل حمص»^(٣) وكان المسلمون عشرين ألفاً^(٤).

وكان على الميمنة معاد بن جسر، وعلى الميسرة هاشم بن عتبة، وعلى العرسان سعيد بن عمرو بن نقيب وعلى المشاة أبو عبيدة.

وفي تقدّمهم إلى دمشق اشتبكوا مع قوة رومية في مرج الصفر وهو سهل واسع يقع على بعد ٢٨ كيلومتراً حو ب دمشق، بين الكسوة وغباغ^(٥)، قرب الجابية، وشمال جبل حوران.

(١) فتوح البلدان ١١٤: الأردني ١١١: ابن أحم ١٨٠/١.

(٢) فتوح البلدان ١١٤.

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي ١٧٦/٢: ابن عساكر ٥١٤/١.

(٤) ابن أحم ١٣/١.

(٥) معجم البلدان ٣٨٧٣/٤: تاريخ أبي زرعة ١/١، ونظر دوسو «طوبوغرافية سوريا» ٣٢٢ تعليق صلاح الدين المسجد في هاشم ابن عساكر ٤٨٨، ولالة دمشق لابن طولون ١٩١: ابن زرعة ١١٧: ابن عساكر ٤٧٨/١.

يذكر البلاذري أنه في وقعة مرج الصفر جرح من المسلمين زهاء أربعة آلاف^(١)، وقد يكون في هذا الرقم مبالغة، إلا أنه يشير إلى صراوة المعركة وكثرة عدد من وقع فيها، خصوصاً وأن قرابة عشرين ألفاً شاركوا فيها.

ذكر ابن إسحق^(٢) وأبو محنف^(٣) أن وقعة مرج الصفر حدثت بعد عشرين ليلة من وقعة أجنادين، أي قبل موقعة حجل، وفي رواية أنها نشبت في أول المحرم^(٤) وذكر الأزدي وأبو محنف وابن إسحق أن الموقعة حدثت بعد أجنادين بعشرين يوماً أي ١٨ جمادى الآخرة^(٥).

وبانتصار العرب في مرج الصفر أصبح الطريق مفتوحاً إلى دمشق فحاصروها ودام حصارها أربعة أشهر، وكان على العرب يزيد بن أبي سفيان ومعه جند من أهل اليمس ذكر منهم بشر بن غزية ومنهم بن المسافر بن هرمة وشافع بن عبد الله بن شافع، وبعث يزيد دحية بن حليفة الكلبي إلى تدمر، وأبى الزهراء القشيري إلى الشنية وحواران مصالحي المسلمين^(٦).

-
- (١) فتوح البلدان ١١٧
 (٢) ابن عساکر ٤٨١/١
 (٣) فتوح البلدان ١١٧
 (٤) فتوح البلدان ١١٧ ابن عساکر ٤٨١/١ من ابن إسحاق والواقدي ١١٠٨ البغوي ١١٩/٢
 (٥) الأزدي ٤٨٣ ابن إسحاق في تاريخ عبيدة ١١٨٨ ابن عساکر ٤٨١/١ ابن أثير ١٦١. ويضع الأزدي مرج الصفر بين حجل وأجنادين، الأزدي ١٧٩
 (٦) ابن عساکر ٥١٧/١

الفصل الرابع عشر

معركة اليرموك

قوات الروم

ارتاع هرقل مما أحرزه العرب من انتصارات متعددة كبيرة، على مناطق واسعة ومدن رئيسة، وخصوصاً بعد فقدانهم كهدداً كبيراً من القوات التي كان يعتمد عليها في الحفاظ على بلاد الشام وتماخف أهل البلاد معهم وانحرافهم عن الروم؛ فقرر حشد جيش كبير يؤمن انتصاراً حاسماً على العرب. وأدرك عتث الاعتماد على العرب من أهل البلاد، باستثناء حيلة بن الأيهم والقوات التي استطاع جمعها من المستعربة من لحم وجذام وبلغين وعاملة وقضاة وغسان، وهم من الأعراب المواليين للروم، وكان عددهم اثني عشر ألفاً وضعهم هرقل في المقدمة^(١)؛ فيما اتخذ هرقل مقامه في أنطاكية^(٢).

اعتمد هرقل في حشد الجيش على مقدنة من أهل الجزيرة الفراتية، وأرمينية والقسطنطينية بالإضافة إلى ما تبقى له من قوات في بلاد الشام^(٣). فيذكر ابن

(١) فتوح البلدان ١١٣٤: ابن عساكر ٥٣١/١

(٢) ابن عساكر ٥٣٨/١؛ فتوح البلدان ١٣٤

(٣) فتوح البلدان ١١٣٤: ابن أعمش ٢٢٠/١؛ ابن عساكر ٥٣٢/١

عساكر أنه جاءه فمر روم قنشرين وأهل الجزيرة وغيرهم بشر كثير^(١) وجاءه من أرمينية إثنا عشر ألفاً عليهم جرجس^(٢).

وقد ذكرت المصادر العربية أرقاماً متباينة عن عدد جيش الروم فذكر ابن الكلبي أنهم كانوا ثلاثمائة ألف^(٣). وذكر الطبري أنهم كانوا ٢٤٠ ألفاً، وفي روايات أخرى أنهم كانوا ١٢٠ ألفاً من أرمينية^(٤). وفي رواية أنهم ٨٠ ألفاً وفي رواية أن الرجالة كانوا ثمانين ألفاً، نصفهم مقترنون بالسلاسل، والخيالة ثمانون ألفاً^(٥)، بقرن كل عشرة سلسلة من حديد^(٦) ويروي ابن عساكر أنه نهافت في المعركة مائة وعشرون ألفاً منهم ثمانون ألفاً بالسلاسل^(٧). وفي رواية أن المقيدبين بالسلاسل أربعون ألفاً، وأربعون ألفاً مرتطون بالعمائم^(٨). ويقول البلاذري أنهم كانوا عشرين ألفاً من أرمينية والجزيرة^(٩). ومن الواضح أن في الأرقام الأولى مبالغة ظاهرة، إلا أنها تشير إلى كثرة عدهم؛ وهو أكثر من أي عدد حشده في معاركهم السابقة والثالثة

ووردت في أسماء القائد روايات متباينة. فذكر خليفة وابن أعثم أن القائد باهان، وهو رجل من أهل فارس تنظر ولحق بالروم، ويقول ابن عساكر إنه أرمي^(١٠)، ويقول ابن الكلبي إنه القائد السقلار^(١١) ويروي ابن عساكر أن

(١) ابن عساكر ٥٤١/١

(٢) ابن عساكر ٥٤١/١

(٣) تاريخ خليفة ١٠٠.

(٤) ابن عساكر ٥٣١/١

(٥) الطبري ٢١٨٨/١، ٢١٩٨؛ ابن عساكر ٥٤٩/١

(٦) ابن أعثم ٢٦٠/٢؛ ابن عساكر ٥٤٩/١

(٧) الطبري ١٢٠٨١/١؛ ابن عساكر ٥٣٤/١

(٨) ابن عساكر ٤٤٩/١.

(٩) فتوح البلدان ١٣٢، ١٣٤

(١٠) تاريخ خليفة ١٠٠؛ ابن أعثم ١٢٠/١؛ الذهبي ١/١٢، ويقول ابن عساكر إنه أرمي ١٣٢/٩.

(١١) الذهبي ١/٢ عن ابن الكلبي

القيادة لباهان والسقلار^(١). وهو لقب لصاحب الخزانة (سكلاريوس). ويذكر سيف أن القيادة العامة كانت لتذاريق، أخي الامبراطور، وعلى مقدمته جرجة، وأن على مجنبيه باهان والتراقص، وعلى الحرب الفيغار^(٢).

عدد القوات العربية

علم العرب باستعدادات الروم، وأدركوا خطورتها، فسحوا قواتهم كافة، وجمعوها للاشتراك في المعركة، ووردت عن عدد المشاركين فيها عدة روايات. فروى سيف بن عمر أنه توافى إلى اليرموك مع الأمراء والجنود الأربعة سبعة وعشرون ألفاً، وثلاثة آلاف من فلال خالد بن سعيد أمر عليهم أبو بكر معاوية وشرحبيل، وعشرة آلاف من أمداد أهل العراق مع خالد بن الوليد، سوى ستة آلاف ثبتوا مع عكرمة ردهاً بعد خالد بن سعيد؛ وكانوا جميعاً ستة وأربعين ألفاً^(٣).

وذكر ابن أعمش أن المسلمين كانوا أربعين ألفاً^(٤)، وروى في مكان آخر أنه كان المسلمون سبعة وعشرين ألفاً ممن كان سميحاً إلى أن قدم عليهم خالد في التسعة آلاف، فصاروا ستة وثلاثين ألفاً^(٥). وذكر الطبري أن قوات المسلمين ثلاثون ألفاً منهم ثلاث آلاف من بقايا جيش خالد بن سعيد، وستة آلاف ممن كانوا مع عكرمة، وعشرة آلاف ممن جاؤوا من العراق مع خالد بن الوليد^(٦). وذكر أيضاً في مكان آخر أن جميع فرقي المسلمين واحد وعشرون ألفاً سوى عكرمة من ستة آلاف^(٧). وفي رواية أخرى للطبري أنهم كانوا ثمانية وعشرين

(١) ابن عساکر ١/٥٢٩.

(٢) الطبري ١/٢٠٨٧ ابن عساکر ١/٥٤٩.

(٣) الطبري ١/٢٠٩١.

(٤) ابن أعمش ١/١٤٧.

(٥) ابن عساکر ١/٥٤٨.

(٦) الطبري ١/٢٠٩٠ - ١.

(٧) ابن عساکر ١/٥٤٨.

(٨) الطبري ١/٢٠٨٧.

ألفاً^(٨) بمن فيهم جيش عكرمة.

وذكر البلاذري^(١) أن عدد المسلمين كان أربعة وعشرين ألفاً. وذكر الوليد بن مسلم أن أبا بكر جهز الجيوش إلى الشام فاجتمع له أربعة وعشرون ألفاً من المهاجرين والأنصار ومسلحة المتح وإمداد أهل اليمن والعالية^(٢). ولم يدخل في هذا قوات خالد والإمدادات التالية، ولا عدد من قُتل في المعارك الأولى.

ووردت عن عدد جيش خالد الذي شارك في معركة اليرموك عدة روايات. فذكر البلاذري أن جيش خالد بن الوليد الذي قُدِمَ به من العراق كان ثمانمائة رجل، ويقال ستمائة، ويقال خمسمائة^(٣). وهذا العدد قليل يخالف روايات أخرى، ولا تؤيده إنجازات هذه القوات. فقد ذكر ابن زرعة أن جيش خالد الذي قُدِمَ الشام كان ثلاثة آلاف^(٤) وذكر سيف بن عمر أن خالد بن الوليد فتح مصرى فيمن معه من جند العراق في تسعة آلاف^(٥)، وذكر في مكان آخر أن أصحاب هاشم بن عتبة الذي هاد من جيش خالد إلى العراق كانوا في عشرة آلاف، إلا من أصيب فيهم فأتهمهم بأفاس ممن لم يكن فيهم، وفيهم فيس والاشاعر^(٦)، ويذكر في مكان آخر أنهم كانوا ستة آلاف، خمسة آلاف من ربيعة، ومصر، وألف من أمراء اليمن والحجاز^(٧). ويجدر بنا أن نذكر أن أهل العراق كوّنوا أربعة من الأربعين كردوساً من اليرموك.

ويذكر ابن أحنم أن أصحاب خالد الذين قُدِمَ بهم من الحجاز واليمامة كانوا سبعة آلاف^(٨).

(١) فتوح البلدان ١٣٤.

(٢) ابن عساکر ٤٥٣/١.

(٣) فتوح البلدان ١٤٧.

(٤) تاريخ ابن زرعة ١١٧٢ ابن عساکر ٤٩٨/١.

(٥) الطبري ٢١١٥/١.

(٦) الطبري ٢١٠٤/١ ابن عساکر ٥٥/١، ٥١٩.

(٧) الطبري ٢٩٠٥/١.

(٨) ابن أحنم ١٣٤/١.

ولا يبعد أن الذين ذكروا عدد المسلمين في اليرموك أربعة وعشرين ألفاً لم يدخلوا في حسابهم القوة التي عادت إلى العراق ويذكر الطبري أن قتلى المسلمين في اليرموك بلغ ثلاثة آلاف

والجدير بالذكر أن يونس بن ميسرة يذكر أنزل المسلمون الجابية وهم أربعة وعشرون ألفاً، وأن الطاعون أفسى منهم عشرين ألفاً وبقي أربعة آلاف^(١) والشطر الأول عن الخبر يؤيد أن المسلمين، بمن فيهم جيش خالد، كانوا ثلاثين ألفاً.

غير أن هذه الأرقام لا تدخل في الحساب عدد القتلى في اليرموك وعددهم حوالي الثلاثة آلاف، ولعلهم هرعوا بهجرات نالية. ولا ريب في أن هذه الأرقام هي عدد المقاتلة من الرجال، ولا يدخل فيها النساء والأطفال. وقد أشارت المصادر إلى تواجدهم ودورهم في اليرموك، كما أن كثيراً من المهاجرات قد حضرن يومئذ مع أزواجهن وأبنائهن^(٢)، وكان لهن دور ملحوظ في مع الرجال من الانهزام عندما يشد عليهم الروم^(٣).

تنظيم الجيش الإسلامي

في المصادر العربية عن تركيب وتنظيم الجيش الإسلامي الذي شارك في معركة اليرموك معلومات توازي في سعتها وتفصيلها ما حدث عن معركة القادسية؛ وتنفرد بالإشارة إلى تنظيمات لم تذكر في القادسية. غير أنها لا تستوعب وصف كثير من التنظيمات والتنسيق بينها. فقد ذكرت أسماء كثير من العشائر دون أن تشير إلى عدد أفراد كل عشيرة. وذكرت عدداً من الأفراد

(١) ابن عساکر ٢٥٨/١

(٢) ابن عساکر ٥٣٧/١

(٣) الطبري ١١٠٠/١؛ ابن أعثم ١٠٠/١، ١٤٥، ١٥٣

البارزين، وهم على كثرة من ذكروا لا بد أنهم بعض، وليس كل المشاركين، ولعلها عكست في ذكرهم الأحوال التالية ومن صارت له مكانة ودور فيها، وأغفلت ذكر أسماء كان لأصحابها دور بارز في المعركة ثم تناقص دورهم في الأحداث التالية.

الكراديس

تردد ذكر الكراديس، وذكر التقسيم المشهور إلى ميمنة وميسرة وقلب، ومقدمة ومؤخرة ومجنّبات، كما تردد ذكر الرجالة والخيّل، والأرياع. كما ذكرت الرايات والألوية، وذكرت الكراديس لأول مرة، ولم تذكر بعدها إلا في زمن مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ولم يوضح العرب خصائصها وميزاتها وآثارها في تحقيق النصر، وسبب عدم أخذ العرب بها طوال الخلافة الأموية إلى زمن مروان. ولم يرد ذكر لأحد العرب بها إلا في معركة القادسية

يروى سيف بن يزيد بن أسيد البجليّ عن خالد وعادة أنه في وقعة اليرموك أخرج خالد في تعبئة لم تعبها العرب قبل ذلك، فخرج في ستة وثلاثين كردوساً وقال. ليس من التعبئة تعبئة أكثر في رأي العين من الكراديس. فجعل القلب كراديس وأقام فيها أبا عبيدة، وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة، وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان.

وذكر أنه كان على كردوس من كراديس أهل العراق القعقاع بن عمرو، وعلى كردوس مذعور بن عديّ، وعياض بن غنم على كردوس، وهاشم بن عتبة على كردوس، ورياد بن حنظلة على كردوس، وخالد في كردوس، وعلى قالة خالد بن سعيد دحية بن خليفة على كردوس، وامرؤ القيس على كردوس، ويزيد بن يحيى على كردوس، وأبو عبيدة على كردوس، وعكرمة على كردوس، وسهيل على كردوس، وعبد الرحمن بن خالد على كردوس، وهو

يومئذ، ابن ثعالي عشرة سنة، وحبيب بن مسلمة على كردوس، وصفوان بن أمية على كردوس، وسعيد بن خالد على كردوس، وأبو الأعور بن سفيان على كردوس وابن دي الحمار على كردوس

وفي الميمنة حمارة بن مُخَشِي بن حويدد على كردوس، وشرحبيل على كردوس، ومعه خالد بن سعيد، وعبد الله بن قيس على كردوس، وعمرو بن عتبة على كردوس، والسقط بن الأسود على كردوس، ودو الكلاع على كردوس، ومعاوية بن حُثَيْج على آخر، وجندب بن عمرو بن حُصَمة على كردوس، وعمرو بن فلان على كردوس، ولقيط بن عبد القيس بن هجرة، حليف لبني ظفر من بني فزارة على كردوس

وفي الميسرة يزيد بن أبي سفيان على كردوس، والربير على كردوس وخوشت دو ظليم على كردوس، وقيس بن عمرو (مذول) حليف لبني النجار على كردوس، وعصمة بن عبد الله (حليف) لبني النجار من بني أسد) على كردوس، وعنتة بن ربيعة بن بهراء (حليف لبني عصمة) على كردوس، وجارية بن عبد الله الأشجعي، حليف لبني سلمة على كردوس، وقبات على كردوس.

وكان القاضي أبو الدرداء، وكان القاصر أبو سفيان بن حرب، وكان على الطلائع قبات بن أشيم، وكان على الأقباض عبد الله بن مسعود، وكان القاريء المقداد^(١) وذكر الذهبي أن سهيل بن عمرو كان على كردوس^(٢)، وأن صفوان بن أمية كان على كردوس^(٣).

لم ينص الطبري على كراديس القلب، والراجع أنهم أو بعضهم كراديس أهل العراق، وهي الثمانية عشر الأولى، وسقطت منها كلمة القلب خطأ من النسخ. أما كراديس كل من الميمنة والميسرة فكانت عشرة.

(١) الطبري ٢٠٩٢/١ - ١٥ ابن عساكر ٥٢٤/١.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي ١٥/٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ٥٦٣/٢.

اقتصر الطبري على ذكر رؤساء الكراديس، ولم يُشير إلى عشائر كل كردوس أو إلى عدد رجاله.

ولم يذكر الانتماءات القبلية لعدد من رؤساء الكراديس، ولعل كل كردوس كان يبلغ حوالي ألف مقاتل لأن المقاتلة المسلمين كانوا يزيدون على الثلاثين ألفاً غير أن مصادر أخرى أشارت إلى عدد من العشائر ومكائنها

كانت كلٌّ من كراديس الميمنة والميسرة تضم عشائر متعددة، كما أن كثيراً من العشائر وبخاصة اليمانية والمكية والحجازية، مورعة على كراديس في الميمنة والميسرة والقلب، ومن قريش، وليمن.

وفي الميمنة خليط من قريش (١)، والحجاز (٢)، وهمدان (١)، وكعدة (٢)، وحمير (١)، ودوس (١) وقصاعة (١).

وفي الميسرة من رؤساء الكراديس: قريش (٢)، والأنصار (٣)، وليث (١)، وأشجع (١)، وأسد (١)، وعك (١)، وحمير (١).

ويتمي رؤساء الكراديس الذين ذكرهم سيف إلى عشائر متعددة، كثير منهم من عشائر مكة، فمن بني أمية خالد بن سعيد، وسعيد بن خالد ويريد بن أبي سفيان، ومن مخزوم عبد الرحمن بن خالد وعكرمة بن أبي جهل ومن جمع صفوان بن أمية، ومن زهرة هاشم بن عتبة، ومن سهم عمرو بن العاص، ومن فهر أبو عبيدة بن الجراح وعياض بن غنم

وليس في رؤساء الكراديس أصداء، ربما فيهم أربعة من حلفائهم: جارية بن عبد الله الأشجعي حليف سلمة وعتبة بن ربيعة حليف العصمة، وقيس بن عمرو حليف النجار، ولقيط بن عبد القيس العراري حليف ظمر.

ومن عشائر الحجاز أبو الأعور وعمرو بن عتبة (من سليم)، وضرار بن الأزور (من أسد بن خزيمة)، ومن ضبة عصمة بن عبد الله ودحية بن خليفة (كلب) أما عشائر اليمن فمنهم السمط بن الأسود، ومعاوية بن حليج (من

كندة) وحوشب ذو ظليم، وابن ذي الخمار (من حمير) ولم تُحقق هوية امرئ القيس، وعبد الله بن قيس، وقنات بن معشي بن خويلد، ويزيد بن يعنص. إن هذا الجرد يظهر أن أكثر رؤساء الكراديس هم من قریش، ومن حلفاء الأنصار، ومن أهل الحجاز ثم من حمير وكندة وهي تتطابق مع الإشارات الأخرى للعشائر التي شاركت في اليرموك والتي ذكرتها بعض المصادر.

ذكرت المصادر عدداً من السارزين الذين شاركوا في معركة اليرموك، ولم يذكر من أصحاب الكراديس، فذكر البلاغري منهم عبد الله بن الزبير بن عبد الملك، وعمرو بن سعيد بن العاص، وطليب بن عمير بن وهب، وجندب بن عمرو الدوسي، وسعيد والحارث والحجاج أولاد الحارث (سهم) والحارث بن هشام بن المغيرة^(١)

وذكر ابن عساكر عبد الله بن قريط (ثعلبة الأرد، وشرك بن عبد الرحمن، وسفيان بن عوف الغامدي (الأزد) والحارث بن هشام، وعلقمة^(٢)

وذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء: كلاً من (١) قيس بن مكشوح، (٢) الأشعث، (٣) زيد بن ثابت، (٤) عمير بن سليمان، (٥) الأشتر، (٦) سويد بن علة الجمعي، (٧) وأبو عثمان النهدي^(٣)

كانت الكراديس تقسيمات مرعية لأخرى أعلى منها وأشمل؛ هي الأرباع والقلب والميمنة والميسرة؛ ولم يذكر سيف كراديس للطلبة أو المؤجرة.

ذكرت المصادر معلومات عن قواد الميمنة والميسرة والقلب فذكر سيف أن أبا عبيدة، كان في القلب، وعمرو بن العاص في الميمنة ويزيد بن أبي سفيان في الميسرة، وذكر ابن أعثم أن يزيد بن أبي سفيان كان على الميمنة، وقيس بن هبيرة المرادي على الميسرة^(٤) وروى ابن عساكر عن قدماء من أهل الشام أن

(١) فتح البلدان ١٣٦.

(٢) انظر: ٣٤٠، ٤١٦، ٤٢٠، ٤٢٤، ٥٥٤، ٥٤٦.

(٣) انظر: ٥٢٠/٢، ٢٤٦، ٤٢٧، ٤٢٠، ٣٤/٤، ٦٩، ١٣٦.

(٤) ابن أعثم ٢٥٤/١.

شرحبيل كان في وسط من الناس إلى جنب سعيد بن زيد، وأن قيس بن هبيرة كان في الميسرة^(١). وذكر الطبري أن عكرمة والقعقاع كانا على مجنّتي القلب^(٢). وذكر ابن سعد أن قباث بن أشيم (كنانة) كان على مجنّبة أبي عبيدة يوم اليرموك^(٣).

ومما يتصل بهذا رواية سعيد بن عبد العزيز عن قدماء أهل الشام وغيرهم أن الروم عندما زحفوا على المسلمين أخرج أبو عبيدة وقد جعل على ميمنته معاذ بن جبل^(٤)، وعلى ميسرته قباث بن أسامة الكناني، وعلى الرجالة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص^(٥)، وعلى الخيل خالد بن الوليد^(٦). وذكر سيف بن عمر أن العرب عند أول اجتماعهم في اليرموك كان عليهم عمرو بن العاص وعلقمة، ويزيد بن أبي سفيان، وأبو عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، بالإضافة إلى فلّال خالد بن سعيد وعليهم معاوية وشرحبيل، وأمداد أهل العراق مع خالد بن الوليد، وستة آلاف ثبتوا مع خالد. وكان قتالهم على تساند، كل جند وأميره، لا يجمعهم أحد، حتى قُتل عليه خالد بن الوليد، وكان عسكر أبي عبيدة باليرموك مجاوراً لعسكر عمرو بن العاص، وعسكر شرحبيل مجاوراً لعسكر يزيد بن أبي سفيان^(٧).

ويذكر ابن أعمش أن أبا عبيدة حصر النساء نائل «وأقبل بعضهم». وقد ابتدأ المسلمون القتال بعد أن عباهم ميمنة وميسرة وقلباً وجناحين^(٨). وذكر أن أبا عبيدة جعل العسكر ثلاثة صفوف: صفّ فيه الرماة، وصفّ فيه أصحاب

(١) ابن عساکر ١/٥٤٢، ٥٤٣.

(٢) الطبري ١/٢٠٩٦.

(٣) ابن عساکر ١/٥٤٠، ٤٩٠ (قباث على الميسرة).

(٤) ابن عساکر ١/٥٣٥.

(٥) ابن عساکر ١/٥٣٧، ٥٤١.

(٦) ابن عساکر ١/٥٢٦.

(٧) ابن عساکر ١/٤٣٥.

(٨) ابن أعمش ١/٢٥٤ - ٢٥٥.

السيوف والجحف، وصف في الرماح والحبل والعدة وقسم الخيالة ثلاثة صفوف، وقدم عليهم ثلاثة من فرسان المسلمين أحدهم قباث بن حرملة العامري، والآخر نبلة بن سيف البربوعي، والثالث القعقاع بن عمرو التميمي. وكان على الدارجة شرحبيل بن حسنة، وعلى الميمنة يزيد بن أبي سفيان، وعلى جناح الميسرة قيس بن هيرة المرادي^(١).

وذكر ابن عساكر أن خالداً قسم خيله قسمين، رأس أحدهما وجعل قيس بن هيرة على القسم الآخر، وكان في القلب سعيد بن زيد من عمرو بن نفيل، وإلى جنبه شرحبيل بن حسنة^(٢)، أما أبو عبيدة فكان وراء سعيد بن زيد ردة له وللمسلمين^(٣).

لم يرد في وصف سيف الكراديس ذكر الجاحيس، وأصناف السلاح، وبخاصة الخيالة، والأرماح والدارجة. ولا بد أن تطور مجرى المعركة تطلب تعديلاً في التنظيمات التي لم تكن شاملة وعم معنها.

وورد في الأخبار ذكر الرايات، فذكر ابن أهنم أن أبا عبيدة في أول المعركة «قدم أصحاب الرايات، وكانت راية المهاجرين صفراء وفيها بياض وخضرة وسواد وسائر القبائل راياتهم مختلفة الألوان» و«وقف أبو عبيدة في القلب تحت رايته، وكان خالد بن الوليد تحت رايته العقاب وكانت سوداء»^(٤).

لم يرد في أخبار معركة اليرموك ذكر للألوية التي كان استعمالها معروفاً عند العرب قبل اليرموك، فيذكر البلاذري أن «أبا بكر أمر الأمراء أن يعقدوا لكل قبيلة لواء بكرمهم»^(٥)؛ فكان للمشركين في أخذ لواء قتل عليه سبعة^(٦)، وكان

(١) ابن أهنم ٢٥٨.

(٢) ابن عساكر ٥٤٢/١.

(٣) ابن عساكر ٥٤٣/١.

(٤) ابن أهنم ٢٥٤/١.

(٥) فتوح البلدان ١٠٧.

(٦) ابن حبل ٢٨٨/١.

لِلرَّسُولِ (ص) يَوْمَ دَخَلَ مَكَّةَ لَوَاءً أَيْبَرُ^(١) يَحْمِلُهُ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ^(٢). وَفِي وَقْعَةٍ صَفِينٍ عَقْدَ مَعَاوِيَةَ أَلْوِيَةِ الْقَبَائِلِ وَأَعْطَاهَا قَوْمًا مِنْهُمْ بِأَعْيَانِهِمْ، جَعَلَهُمْ رُؤَسَاءَ وَحَمَلَ لَوَاءَهُ لِعَمَدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ^(٣). كَمَا أَنَّ عَلِيًّا عَقْدَ الْأَلْوِيَةِ، وَأَمَرَ الْأَمْرَاءَ^(٤).

أما الرايات فقد تردد ذكرها في وقعة صفين، وكانت رايات أهل العراق سوداء وحمراء وذكاء وبيضاء ومصفرة وموردة، والألوية مضروبة ذكنا وسوداء^(٥).

قدم الرواة والمؤرخون معلومات واسعة، فيها كثير من التعارض والتناقض، عن تنظيمات الجيش الإسلامي في معركة اليرموك، وعدد من المساهمين فيها، مقتصرين في كثير منهم على ذكر أسمائهم دون نسبتهم القلبية، ولم يقدموا معلومات شاملة عن أسماء العشائر كافة المسهمة فيها. ومن المعلومات القليلة التي قدّموها في هذا النطاق ما ذكره الطبري أنه شهد اليرموك ألف من أصحاب رسول الله (ص) فيهم نحو من مائة من أهل بدر^(٦). وذكر ابن أحنم في يوم كانت الأردن في القلب، وحمير وهمدان ومذحج وعولان وخثعم وكناة وقضاة ولخم وجذام في الميسرة، ولم يكن فيهم نعيم ولا ربيعة لأنهم كانوا في العراق مع سعد بن أبي وقاص^(٧).

وذكر أن ميمنة المسلمين كان فيها الأزدي ومذحج وحصرموت وزبيد الذين كان عليهم الحجاج بن عبد عمرو، وهم خمسمائة رجل وأنهم حملوا على الروم وحملت معهم حمير وحصرموت وعولان. وذكر ابن عساكر «خرج الناس

(١) انظر أصول الجهاد في ابن ماجه ١٦٤ الثاني ١٦٩ الرمزي ٩/٩

(٢) البخاري، الجهاد ٢٢١.

(٣) وقعة صفين لنصر بن مراحم ٢٨٨

(٤) كذلك ٢١٦.

(٥) كذلك ٣٢٢.

(٦) الطبري ٢١٩٥/١/١

(٧) ابن أحنم ٢٥٤/١ - ٣.

على راياتهم وفيها أشرف رجال من العرب فيها الأزدي وهم ثلث الناس، وفيها حمير وهمدان ومذحج وخولان وخثعم، وفيها كنانة وقضاعة ولخم وجذام وكننة وحضرموت، وليس فيها أسد ولا تميم، ولا ربيعة، ولم تكن دارهم، إنما كانت دارهم عرافية^(١). وذكر أيضاً أن ميمنة المسلمين كان فيها الأزدي ومذحج وحضرموت وحمير وخولان وزبيد أيضاً، وهم خمسمائة رجل^(٢). وكانت كنانة وقيس وخثعم وجذام وقضاعة وعاملة وعشائر فيما بين ميسرة المسلمين إلى القلب^(٣) وفي القلب سعيد بن زيد بن عمرو بن قيس ووراءه أبو عبيدة وإلى جنبه شرحبيل بن حسنة.

ميدان المعركة

تابع هرقل سياسته التي اتبناها في المعارك التي خاضها جيش الروم باختياره لتحشيد جنده في أرض متموجة تيسر فيها حركة الرجالة والخيالة، وتتوافر فيها المياه، وتكون في مؤخرة جيش خصمه ليحجبه على الاسحاب، ويختار لجنده المواقع المسيطرة التي تساعد على التصارده وهو يختار المناطق العراء. وكان هذا ما فعله في أحنادين وفحل واليرموك، وهو بهذا الاختيار يهاجم خصمه ويدفعه إلى تفريق قواته وتوزيعها على مناطق متعددة دون أن يكون واثقاً من المكان الذي سيجري فيه القتال؛ ولم يكن يعتمد على اختيار المدن لمقاتلة خصمه. والواقع أن المعارك الأولى كفة التي خاضها العرب ضد الروم، لم تكن في المدن إلا بعد انهيار جيش الروم في اليرموك.

اختار هرقل لتحشيد قواته في المعركة التي اعتزم أن تكون حاسمة سهلاً جنوبي بصرى في الغور، وكان في غرب هذا المكان بحيرة طبرية التي يخرج من جنوبها نهر الأردن ويصب في البحر الميت. ويخترق ميدان المعركة نهر

(١) ابن عساکر ٥٣٥/١.

(٢) ابن عساکر ٣٩/١.

(٣) ابن عساکر ٥٣٥/١، ٥٣٧، ٥١٩، واطر أحمد كمال عادل ٤٨٢.

اليرموك الذي يجري من الشرق ويصب في نهر الأردن. وفي الجهات الغربية من هذه المنطقة يقع مجرى الواقصة والرقادة. وهو يجري من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي مكوناً منحدرات عميقة ويلتقي حيث حشد الرجال المسلمين للصمود بوجه أي محاولة لالتفاف. وكان قلب قواته من الخيالة في نَشْرٍ مرتفع من الأرض، تسنده من العرب الواقصة والرقادة، وجناحهم الأيسر وظهورهم مكشوف لفضاء ييسر حركة الخيالة وإمدادهم أو إسحاحهم^(١)

علم العرب باستعدادات الروم، وقدرُوا خطورتها، وأدركوا أن المعركة القادمة ستكون حاسمة؛ فكتبوا إلى الخليفة بقوة الروم وتقدمهم؛ وسحبوا قواتهم كافة، فأحلوا البلاد التي كانوا قد توعلوا فيها شمالاً من حمص ودمشق، ولا مد أنهم جمعوا ما كان لهم من قوات في فلسطين والأردن، وتجمعوا في الجابية، بين الرقادة ومرج الحولان^(٢)

نشب القتال يوم الاثنين الحامس من رَجَب سنة ١٥^(٣) وحشد المسلمون قواتهم جنوب اليرموك وبدأ الروم القتال برشقهم المسلمين بالبال تلاء هجوم ميسرتهم على ميممة القوات الإسلامية، وأكثرهم من لخم وجدام والأرد، وعليهم عمرو بن العاص وشرحبيل، وأفلحوا في ضعفها، ولكنهم لم يشتوها، إذ أنجدهم قوات من القلب، فأسحت في صد هجوم الروم^(٤)، وقام النساء بدور في إيقاف التراجع^(٥)

وفي اليوم الثاني من القتال تابعت ميسرة الروم مهاجمة قوات ميممة

(١) من أشمل الدراسات الحديثة ما قام به أحمد كمال عادل في كتابه وحيه معتمد في غرضنا الموجز لمحركات حوادث المعركة ودراسة أحمد سويدان في كتابه حذيرة بالتقدير

(٢) ابن أعثم ١١٣٢/١ ابن عساکر ٥٣٢/١.

(٣) تاريخ خليفة ٤١٠٠ فتح البلدان ١٣٦ (هو ابن الكشي) الطبري ١٥٥/١، ١٧٣؛ ابن أعثم ١٢٦٠ تاريخ الإسلام للذهبي ١٠/٢. ويذكر سيف أن المعركة نشبت في جمادى الآخرة من سنة ١٣ (الطبري ٢٠٩١/١)

(٤) مختصر تاريخ ابن عساکر ٥٢/٤

المسلمين، ونشب قتال ضارٍ صمد فيه المسلمون، وقتل القبطلار قائد الروم، وقام الرماة الأرمن بدور في القتال، وصمد أصحاب السلاسل.

وفي اليوم الثالث قامت خيالة المسلمين في القلب، وعليهم خالد بن الوليد بهجوم نشب فيه قتال حار استطاع خالد أن يدحر خيالة الروم بعد قتال ضارٍ، وتشتت خيالة الروم، ودأب بعضها المشاة الملسلون، فوقعت فيهم خسائر كبيرة، من قتلى أو غرقى في الرقادة، وقتل من استطاع منهم الهرب؛ وكان النصر تاماً للمعرب، ولم يبقَ في الميدان غير جثث القتلى. وبذلك انهار جيش الروم؛ ولما سمح هرقل بالهزيمة انتقل إلى أنطاكية، وأصبح الطريق أمام القوات العربية مفتوحاً للتقدم إلى دمشق ثم إلى شمال بلاد الشام.



الفصل الخامس عشر

فتح دمشق وشمال بلاد الشام

دمشق وأهميتها

دمشق من أكبر المدن العربية وأقدمها في المنطقة، تقع في أرض مستوية تحيطها الجبال والمرتفعات من جوانبها الشرقية والغربية، ويتصل بأطرافها الشرقية سهل العوطة المتصل بالهادية، وتتوافر فيه المياه التي تروي المزارع وأشجار الفاكهة والخضر، ويغرقها نهر بردى وروعه التي توفر الماء للسكان والمزارع.

ودمشق من أكبر مراكز الصناعة والتجارة في المنطقة، فهي مركز لكثير من المنتجات الصناعية من السيج والأسلحة والصناعات الحشوية، فضلاً عن أنها كانت من أكبر المراكز الحضرية والعسكرية؛ وهي ملتقى الطرق التجارية بين مدن شمال وجنوب بلاد الشام، وبينها وبين بعلبك وسهل البقاع وموانئ أواسط الساحل الشرقي من البحر المتوسط بما فيها بيروت والمدن الساحلية الأخرى.

وكان يحيطها سور حصين، عرضه عشرون قدماً وارتفاعه خمسة أمتار، مبني بالحجارة المربعة، وفيه شرفات وأبراج بارزة مربعة بين الواحد والآخر منها خمسون قدماً، عليها أشية ومساكن لحراس، ويحيط السور خندق عرضه بين عشرة أقدام وخمسة عشر قدماً

وللسور سبعة مداخل عبيها أبواب ثقيلة مصفحة بالحديد، أكرها الباب الشرقي الذي يقود إلى هيكل روماني قديم، وفي الجانب الغربي باب الجابية، وفي الجنوب باب كيسان، وهناك أيضاً باب توما، وباب الفراديس. وفي وسط دمشق ساحة واسعة يسميها العرب المقسلاط^(١).

هاجم العرب دمشق وأخضعوها ثلاث مرات، وكان هذا سبب بعض الإرباك والخلط عن أخبار فتحها. ومن المؤكد أن أول محوم عليها قام به خالد بن الوليد في طريق قدومه من العراق، فوجّه بعد اجتيازه مرج راهط بسر بن أبي أرطاة وحبيب بن مسلمة فأغاروا على بعض قراها. وتقدّم بقواته إلى الباب الشرقي، ويقال بأنه نزل باب الجابية، ولم يحاصر دمشق وإنما تابع سيره إلى بصرى حيث اجتمع مع القوات الإسلامية العاملة في بلاد الشام^(٢).

ولما دحر العرب الروم في معركة أجنادين ومحل تابموا ثقلهم فدخلوا دمشق، وأرسلوا قوة دخلت حمص، وكسبت للروم قوات في شمالي بلاد الشام، فعمل هرقل على استخدامها لإقصاء العرب عما طغروا به من البلاد، ودفع قوات بقيادة أخيه تيودور، ويسميه العرب تذارق، تدعى المصادر أنها تلح تسعين ألفاً نحو ثنية جلق، ووجّه حرجة ابن تيودور بقوة مقابل يزيد بن أبي سفيان، والداقش نحو شرحبيل، والقيقان بن سطورس، نحو أبي عبيدة^(٣). ويروي الأزدي أن هرقل أرسل إلى دمشق نحو خمسة آلاف من أهل القوة والشدة من أهل دمشق وجمعاً كبيراً من أهل حمص، صانت قوتهم أكثر من عشرة آلاف تصدت لها القوات الإسلامية، وكان خالد بن الوليد في الميمنة، ومعاذ بن جبل وهاشم بن عتبة في الميسرة، وعلى الخيل سعيد بن زيد بن

(١) فتوح البلدان ١١٢، ١٢٥، وانظر في وصف دمشق كتابي سواحجه، وصلاح المسجد، وفي سور دمشق قائماً إلى أن هدمه عبد الله بن علي أول ولاية بني العباس على دمشق. (فتوح البلدان ١٢٥).

(٢) فتوح البلدان ١٠٩، ١٢٠؛ معجم البلدان ٤٣١/١.

(٣) الطبري ٢٠٨٧/١؛ ابن عساكر ٥٣٢/١.

عمرو بن نفيل، وعلى الرجال أبو عبيدة، مهاجمتهم أجنحة المسلمين وقتلت منهم نحو خمسمائة وأسرت مثل هذا العدد فخلت دمشق ممن يدافع عنها، وعقد أهلها مع المسلمين صلحاً^(١)، وأنعذ أبو عبيدة قوة إلى حمص، فطلب أهلها الصلح على ما يؤدونه.

وقام هرقل بتجهيز قوة كبيرة سلكت سهل البقاع وتقدمت إلى اليرموك فأحس العرب بحظر تطويقهم، ومسحوا قواتهم من حمص وأخلوا دمشق، وجمعوا قواتهم استعداداً لمعركة اليرموك الكبرى.

ولما أحرز العرب انتصارهم الساحق في اليرموك تابعوا تقدمهم إلى دمشق وكان حاكمها توماس زوج ابنة هرقل، وفائد الحامية أنادير^(٢).

يروى ابن أعثم أن القوات الإسلامية التي حاصرت دمشق وفتحتها كانت سبعة وثلاثين ألفاً، وأنه كان مع عمرو بن العاص أربعة آلاف ومع معاوية بن حديج ثلاثة آلاف^(٣)، وهذه أرقام فيها مبالغة.

لم تكن لهرقل قوات تستطيع صد المسلمين، فاعتمد في الدفاع عنها على أسوارها، والقوات الإسلامية من رجاله وخيالة كانت مدرية على القتال البري في الأراضي المكشوفة، ولم تكن مدرية على القتال من خلف الأسوار، كما لم تكن لديها المعدات اللازمة لهدمها والتعب عليها.

توزعت القوات الإسلامية في حصار دمشق على أبواب أسوارها، فكان أبو عبيدة مع قواته على باب الجابية، وخالد بن الوليد على باب الشرقي الصغير، ويزيد بن أبي سميان على باب توما، وشرحبيل بن حسنة على باب الفراديس. وبعد حصار دام أكثر من أربعة أشهر استطاعوا تسلق السور وفتح خالد بن

(١) تاريخ الأردني ١٨٣ - ٨٤.

(٢) يقول ابن إسحاق إن قائد الحامية كان باهنا، الطبري ١٢١٤٢/١ ابن حساكر ١٤٨٥/١ تاريخ الإسلام للذهبي ٢/٢.

(٣) فتوح البلدان ١٢٢، ١٢٣، الأموال لأبي عبيد ١٧٧، تاريخ اليعقوبي ١٥٦/٢ ابن أعثم ١/ ١٣٩، ابن حساكر ٥١٢/١ ويذكر البلاذري أن عمرو بن العاص كان على باب توما.

الوليد وأبو عبيدة أبوابها، وتعلبوا على المدافعين عنها^(١)، والتقت قواتهما في المقلات عند موضع النحاسين^(٢)، واستسلمت القوات المدافعة عنها، وهيمن العرب عليها وأثار استسلام دمشق نقاشاً عند الفقهاء. فذكر بعضهم، ومنهم ابن سلام، أن أهل دمشق صولحوا، وارتأى آخرون أنها فتحت عنوة^(٣). وفي أي حال فإن استسلام دمشق اعتبر صلحاً.

أمن ضم العرب دمشق لدولتهم قاعدة اقتصادية حصارية وفكرية متميزة الأهمية. وقد أصعب اندحار الروم قلاوتهم العسكرية، ولكنه لم يجتثها، فبقيت لهم قوات تهدد استقرار حكم العرب في دمشق، وأدرك أبو عبيدة ذلك فلم يتوان عن العمل على إزالة مصادر أي خطر من الروم؛ فخلف في دمشق سويد بن كلثوم بن فيس القرشي مع جماعة من بني محارب بن فهر من حمص^(٤). ويذكر ابن عسكراً أن بريد بن أبي سفيان بقي معه في دمشق عدد من قواد أهل اليمن منهم أعثم بن بشر بن خزيمة وعامر بن هرمة ومشامع بن عبد الله بن مشافع^(٥). ولم يذكر ابن عسكراً عدد القوات العربية التي بقيت في دمشق. وتدل إشارته إلى أن من ذكرهم من قواد أهل اليمن أن أكثر الباقين في دمشق كانوا من أهل اليمن.

فتح بعلبك

كان أول ما فعله العرب بعد فتح دمشق ضم بعلبك إلى دولة الإسلام، فإن هذه المدينة هي أهم قاعدة في وادي البقاع، وكان الروم يرسلون قواتهم من طريقها لإقصاء العرب وقطع خط الرجعة عليهم.

(١) الطبري ٢١٤٦/١، ٢١٥٠؛ تاريخ خليفة ٩٤

(٢) فتوح البلدان ١٣، ١٤١.

(٣) الأموال لأبي عبيد، ١٥، ١١٧٧؛ ابن عسكراً ٥٢٠/١، ٥٣٧؛ ويروي الكلبي أن خالداً دخلها صلحاً. تاريخ خليفة ١٩٤.

(٤) تاريخ الأزدي ١٤٨

(٥) ابن عسكراً ٥١٧/١ وانظر - الطريق إلى دمشق لأحمد عادل كمال ١٩١

يروى الأزدي أن أبا عبيدة خرج من دمشق إلى بعلبك، فقدم خالد عليهم فصاروا ألفاً وخمسمائة^(١) ويذكر أن خلداء حاصر بعلبك وأرسل نحو خمسين كان منهم ملحان بن رباد الطائي وبناد بن حازم القيسي ودحية الكلبي^(٢)

انتهى حصار بعلبك بصلح وقعه أبو عبيدة وفيه أن أبا عبيدة أمن أهل بعلبك ورومها وفرسها وعربها، على أموالهم وأنفسهم ودورهم داخل المدينة وخارجها، وأباح للروم البقاء بضعة أشهر يغادرون بعلبا إلى حيث شاؤوا وأن لتجارهم أن يسافروا إلى حيث شاؤوا من بلاد الدولة الإسلامية^(٣). وهذه الأمور تشير إلى السمة السكانية لأهل بعلبك المكوّنين من عرب، وفرس، وروم، وأنه لم يقص منها إلا الروم.

فتح حمص

كانت حمص من أكبر المدن في شمالي بلاد الشام. وكثيراً ما كان هرقل ينزلها ويقيم فيها وقد فتحها القسطنطين^(٤) وأولاهما قل معركة اليرموك. فلما أرسل هرقل قواته إلى اليرموك لإجبار العرب على الانسحاب من بلاد الشام، وأدرك العرب خطر محاولة هرقل، انسحبوا مما سيطروا عليه وحملوا على جمع قواتهم لمقاومة قوات هرقل؛ وأعاد العرب لأهل حمص ما كانوا قد جبروه منهم.

وبعد أن انتصر العرب في اليرموك، وفتحوا دمشق وبعلبك لم يتأخروا في إنفاذ قواتهم لفتح حمص؛ وفي المصادر معلومات واسعة متفرقة عن فتح حمص؛ وليس واضحاً في كثير منها ما يتصل بالفتح الأول أو الفتح الثاني النهائي. والراجح أن أكثر التفاصيل التي ذكرتها المصادر تتعلق بالفتح الثاني.

يروى ابن عساكر أنه بعد فتح دمشق كتب الحليفة عمر إلى أبي عبيدة

(١) تاريخ الأزدي ١٤٨.

(٢) تاريخ الأزدي ١٤٤ وانظر: أحمد عادل كمال ٣٨/٩.

(٣) فتح البلدان ١٢٩ - ١٣٠ وانظر الوثائق السياسية ١٥٣ لمحمد حميد الله

قائلاً: «انطلق أنت وخالد إلى حمص، ودع شرحبيل وعمرؤ... بالأردن»^(١). ويقول البلاذري إن العرب بعد استيلائهم على بعلبك تقدموا منها إلى حمص من طريق وادي البقاع ودحروا قوات الروم^(٢).

أبدي أهل حمص مقاومة في جوسية؛ ويذكر الأردني أن خالد بن الوليد قاتل أهل حمص في جوسية «معهم ميسرة بن مسروق العبسي ورجل من حمير اسمه جل». وكان من رجال جيشه مدحان بن رباد الطائي، وعبد الله بن قرظ، وصهمان بن المعطل، كل منهم صاحب رأي، وقد انتهى إلى حمص أول يوم حاصرها المسلمون تسع ربات، كانت لطي منها رابتان، وكانوا في المقدمة من فرسان خالد وكانت أول راية دخلت حمص ودارت حول مدينتها راية ميسرة بن مسروق العبسي. وكانت لأبي أمامة راية، ولأبي محرز راية. وكان من قوات العرب فارس من آل دي الكلاع؛ وبعث خالد لمطاردة الحمصيين ميسرة بن مسروق العبسي، ورجل من حمير اسمه شرحبيل^(٣).

ويروى «قال عبد الله بن قرظ دفع إليّ عمر هذا الكتاب وقال إذا قُيِّمَتْ على المسلمين فسر في صفوفهم، وقف على أهل كل راية منهم». وكان معاذ في الميمنة، وقيث بن أشيم في الميسرة، وكانت فيها كانة وقيس^(٤).

ويذكر الأزدي «كان أبو بكر بعث سعيد بن عامر على سبعمئة رجل، فيهم بلال بن أبي رباح وعبد الله بن قرظ»^(٥). ولا بد أن هذه القوة شاركت في فتح حمص الأول، ولعلها شاركت في الفتح الثاني. ويروي البلاذري أن السمت الكندي فتح حمص وقسم على أهلها المنازل^(٦) وقد يدل هذا على أن السمت أسند إليه عمل إداري وتنظيمي بعد فتحها.

(١) ابن عساکر ١/٥١٤.

(٢) فتوح البلدان ص ١٣٧.

(٣) الأردني ١/١٤٤؛ وانظر أحمد عادل كمال ٣٣٢، ٣٩٣.

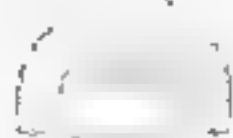
(٤) أحمد عادل كمال ٤٢٧، ٤٣٣.

(٥) تاريخ خليفة ٩٩ من ابن إسحاق، ويذكر أن الفتح كان سنة ١٨؛ ابن سعد ٣ - ٨/١٩٥ تاريخ الأردني ١٨٥.

(٦) فتوح البلدان ٢٢٩.

وذكر ابن عساكر أن هرقل أرسل قوة لصد المسلمين عن حمص، وكان في هذه القوة على الميمنة قناطير صاحب أرمينيا^(١)، والزمنجار صاحب الميسرة^(٢). وعلى المقدمة جرجة، وعلى المجيشين باهان والدراقص. وأن باهان قتل بالجووان^(٣)، وانضم جرجة إلى المسلمين^(٤)، ويذكر الطبري أن تذارق أخا هرقل قُتل^(٥). ويرى الجنرال أكرم أن «هرقل أرسل قناطير إلى طريق بيروت، وجرجة إلى شمال شرقي حمص، وبرجان إلى ساحل حلب وحمص، وجبلتة بين حلب وحمص، والروم بقيادة وردان حاكم حمص يعاونه القبطلار^(٦)».

ويقول دونر تقدم أبو عبيدة إلى حمص ويشير بن كعب، وفو الكلاع بين دمشق وحمص؛ وأن هرقل أرسل تودرا البطريق وشناس الرومي، وقوة مع تيودور، فطاردها خالد ولما اندحر الروم وقتل تيودور، وانسحب هرقل إلى الرها؛ تقدم أبو عبيدة وخالد إلى حمص ودخلوها وأحضروا ما حولها^(٧).



-
- (١) الطبري ٢٥٩٤/١.
 (٢) ابن عساكر ٥٣٩.
 (٣) ابن عساكر ٥٣٤/١.
 (٤) الطبري ٢٥٩٧/١ ابن عساكر ٥٤٩/١.
 (٥) الطبري ٢٥٣٤/١.
 (٦) خالد بن الوليد لجنرال أكرم.
 (٧) دونر، الفتح الإسلامية ١٣٧.



الفصل السادس عشر

إكمال فتح بلاد الشام

كان فتح دمشق حدثاً بالغ الأهمية للعرب، نظراً لِسعة المدينة وأهميتها الحصارية والعسكرية، وقد تم المتح بعد التغلب على مقاومة حاميتها ولم تصلها خلال الحصار نجدة من هرقل لأنه لم يعلم عنده قوات كافية لفكّ الحصار عنها.

غير أن فتح دمشق لا يكفي لِتأمين استقرار الحكم العربي ما لم يتابع السيطرة على المناطق التي حولها والتي قد يتحدها الروم قواعد لاستعادة ما فقدوه. وكانت الصورة واضحة للتقدم إلى الشمال حيث كان هرقل لا يزال مقيماً في أنطاكية يتحين الفرص لإعادة الهجوم على العرب. وكان العرب المتنصرون قد ازدادت شكوكهم بقوة الروم وهزت مواطنهم انتصارات العرب الذين تربطهم بهم صلات اللعة وما يتصل بها من ثقافة، وكان لاعتناقهم المذهب البيعقوبي المخالف للأرثوذكسية التي يعتنقها الروم أثر في زيادة إضعاف هيمنة الروم، وكان أهل الأراضي من الفلاحين والزرّاع مجردين من القوة وقد أرهقتهم الضرائب التي لا بد أن أعاءها اردادت للصرف على الجند. ولم يصادف العرب في تقدّمهم بعد فتح دمشق، جيشاً يقاومهم، واقتصرت المقاومة على عدد من المدن التي اعتمدت في مقاومتها على حصانة مواقعها وأسوارها والعدد القليل المتعصب للروم من سكانها والذين أجّلوا بعد الفتح، أما غالبية

السكان فلم يبدوا مقاومة فعالة، ويقروا بعد الفتح في مدنهم وتعاونوا مع العرب.

لذلك سارع أبو عبيدة إلى صم الأقسام الشمالية من بلاد الشام، فترك يزيد بن أبي سميان يتولى إدارة دمشق، وتقدم إلى حلب وهي أكبر مدن سهل البقاع الخصب ولها أهمية حضارية وتجارية، وتمر بها طرق التجارة بين دمشق وسواحل البحر الجنوبية وقد سلكتها جيوش هرقل علما تقدمت إلى اليرموك، فالسيطرة عليها تؤمن الجناح الغربي لدمشق. وكان سكانها من ذوي الأصول العربية، وفيها جاليات رومية وفارسية، فاضطر أهلها إلى الاستسلام وطلبوا الصلح، وعقد لهم أبو عبيدة معاهدة أس فيها أهلها وتجاراتهم وأمهل الروم مدة شهرين ليعادروها بعدها^(١).

ثم تقدم المسلمون إلى حمص، وهي المدينة الرئيسة بعد أنطاكية في شمال بلاد الشام، وكانت مركز تحشد جيشه الذي كان يرسله لمقاومة العرب ويقول الواقدي إن أبا عبيدة وجه إليها السمط بن الأسود الكندي فأجبر أهلها على طلب الصلح، ثم قَبِلَهَا أَبُو عُبَيْدَةَ، فَنَسَبَ الصَّلْحَ، ثُمَّ صَالَحَ أَهْلَ حِمَاةٍ وَشِيزَرٍ وَالْمَعْرَةَ وَأَقَامِيَةَ، وَبِذَلِكَ أَمِنَ سَيْطَرَةُ الْعَرَبِ عَلَى الْمُسَطَّةِ وَأَقَامَ فِيهَا جُنْدًا، فَاصْصَحَتْ مِنْ أَبْرَزِ أَمْصَارِ بِلَادِ الشَّامِ، وَأَرْسَلَ مِنْهَا حَمَلَاتٍ أَحْصَعَتْ الْمَوَانِيءَ الْقَرِيْبَةَ مِنْهَا عَلَى الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ^(٢).

(١) فتوح البلدان ١٢٩ - ١٢٠ تاريخ خليفة ٩٩ (يسب الفتح إلى خالد)

(٢) فتوح البلدان ١١٣٤ تاريخ خليفة ٩٩

متابعة العرب تقدّمهم في شمال بلاد الشام

إن ضم العرب حمص إلى دولتهم حرم الروم من قاعدة كبيرة كانوا يرتكزون عليها في السيطرة على شمال بلاد الشام، كما أنه أوصل العرب إلى منطقة في أحوالها بعض الاختلاف عن أواسط وجنوب بلاد الشام، حيث إنها أبعد من جزيرة العرب وأقرب إلى بلاد الروم، ولم تكن قد وصلت إليها الجيوش العربية من قبل، كما أن هرقل كان يقيم فيها إبان تقدّم الجيوش العربية، وفي بواديها عشائر من تنوخ وسليح ليست لها صلة قوية بعشائر جزيرة العرب، بالإضافة إلى قربها من العوانى الكبيرة في إنطاكية وطرابلس ثم إن تقدّم الجيوش العربية إليها حدث متأخراً وتالياً لتقدمهم في بلاد واسعة من الأردن وفلسطين وجنوب وأواسط بلاد الشام، مما كان يتطلب إقامة حاميات في المراكز الرئيسة للبلاد التي ضمت إلى العرب، لذلك لم يكن بإمكان العرب أن يرسلوا إليها قوات كبيرة كالتي وُجهوها إلى مدن فلسطين والأردن ودمشق.

غير أن كل هذه الأحوال لم تُعَلِّ دون وجوب ومتابعة تقدّم العرب بسرعة لإكمال ضم بلاد الشام إلى دولة العرب قبل أن يجمع الروم قوات لتثبيت أقدامهم فيها وتهديد دولة العرب في بلاد الشام.

ولما أتم أبو عبيدة السيطرة على حمص تقدّم وعلى مقدمته خالد بن الوليد إلى قنسرين، فقاومه أهلها ثم طلبوا الصلح، فصالحهم على مثل صلح حمص، وغلب المسلمون على أرضها وقراها^(١).

ثم سار أبو عبيدة وعلى مقدمته عياض بن غصم الفهري إلى حلب، فأبدى أهلها مقاومة، ثم طلبوا من عياض الصلح والأمان على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم وحصنها، ويروى أن أهل حلب أخلوا المدينة عند تقدّم جيوش المسلمين، وانتقلوا إلى أنطاكية، ثم عادوا بعد أن أمن أبو عبيدة صلحهم^(٢).

(١) فتوح البلدان ١٤٣: تاريخ خليفة ١١٥ (يذكر أن عمرو بن العاص صالح حلب ومسيح وإنطاكية وقنسرين في سنة ١٦، ولعل اسم عمرو ذكر خطأ).

(٢) فتوح البلدان ١٤٥ - ٦.

وفي طريق تقدّم المسلمين إلى حلب عرض أبو عبيدة على تنوخ، وكانت تقيم في أطراف قنسرين، الإسلام فأسلم بعضهم وأقام بنو سليح على النصرانية وفعل مثل هذا بحاصر طي وحاصر حلب فتمسكوا بالنصرانية فعرض عليهم الجزية^(١) وفتحوا معرة مصرين وحصارة وفورس^(٢).

الموانئ الشمالية

ولما أتم أبو عبيدة بن الجراح السيطرة على حمص وحماء وما بينهما أنفذ عبادة بن الصامت الأنصاري إلى اللادقية ففتحها عوة بعد قتال قوم من نصاراها، فطلبوا منه الأمان وعادوا إلى أرضهم فوطعوا على خراج يؤدونه قتلوا أو كثر^(٣) ثم تقدم عبادة بن الصامت ففتح جبلة، وكنت حصناً للروم، فجلا أهلها عنها ثم أعاد بناءها معاوية^(٤) وقد تقدم عبادة إلى أنطرسوس وفتحها بعد أن جلا عنها أهلها، وقد أعاد معاوية بن عام حصن جبلة وأنطرسوس واللاذقية وحصنها وشحنها بالمقاتلة^(٥).

وبعد أن أتم أبو عبيدة السيطرة على حلب تقدّم إلى أنطاكية، وكانت أكبر المدن في شمال بلاد الشام ولها تاريخ طويل وقد لجأ إليها عدد كبير من أهل جند قنسرين المؤيدين للروم، وأجبر أهلها على الصلح، وجلا بعضهم ثم نقضوا الصلح، فوجه إليهم أبو عبيدة عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة ففتحها على الصلح الأول ووضع فيها مراقبة من المسلمين^(٦).

(١) فتوح البلدان ١٤٤.

(٢) فتوح البلدان ١٤٨.

(٣) فتح البلدان ١٣١ - ٢.

(٤) فتوح البلدان ١٣٢.

(٥) فتوح البلدان ١٣٣ ويشير إلى أن كتب الطبري عن سورية للدومو لا يزال أوسع كتاب في وصف مواضع هذه الأماكن، وأن الجزء الأول من كتاب «تعبية الطلب» لابن العديم فيه معلومات غبة أخذ كثيراً منها عن «البلادي»، وأضاف إليها معلومات من مصادر أخرى.

(٦) فتوح البلدان ١٣٦. وانظر عن أنطاكية كتاب «أنطاكية» لدنوبي نقله إلى العربية إبراهيم نصحي وانظر «أنطاكية مدينة الله» لأسد وحتم.

ثم سار أبو عبيدة إلى قورس وكادت كالمسلحة لأنطاكية، وأرسل إليها قوة بقيادة عياض بن غنم فأجبر أهلها على قبول الصلح^(١) ويعد أن أتم أبو عبيدة السيطرة على الموانئ الساحلية توجه لإحصاع المناطق الشرقية، فوجه عياض بن غنم إلى منبج ثم ذلوك وريعان فصالحهم على مثل صلح أنطاكية^(٢).

ثم تقدم أبو عبيدة إلى بالس، وأرسل منها جيشاً بقيادة حبيب بن مسلمة إلى قاصرين فصالحوه، وجلا أكثرهم إلى بلاد الروم ووصل إلى العرات، فوقف عنده وعاد إلى فلسطين. ورتب أبو عبيدة سائر جماعة من المقاتلة وأسكنها قوماً من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام، وقوماً من قيس نزحوا من البوادي بعد العوث^(٣).

وقد أبدت أنطاكية مقاومة تعلب عليها العرب، وفتحوها، ثم ثارت فأعاد العرب فتحها، ووضعوها فيها قوة من المقاتلة، وتابعوا تعزيز هذه القوة لئلا تمنع تقدم الروم من هذه الجهة التي كانت ثغرة يمكن أن يغفلوا منها إلى بلاد الشام، بالإضافة إلى أن الأسطول البيزنطي قد يتحدها قاعدة لحركات تهدد سيطرة المسلمين على السواحل.

وأرسل أبو عبيدة حملة فتحت قورس وأقام العرب فيها حامية، كما غزا المصيصة التي صارت فيما بعد من أعظم الثغور الإسلامية.

وأرسل أبو عبيدة قوة عليها عساة بن الصامت فتحت اللاذقية وجبله وأنطرسوس ثم تقدم أبو عبيدة إلى بالس، وكان فيها الجسر الرئيس على الفرات، ففتحها ووضع فيها حامية من المقاتلة العرب وممن أسلم من عرب الشام.

- (١) فتح البلدان ١٤٨.
(٢) فتح البلدان ١٤٩.
(٣) فتح البلدان ١٤٩ - ١٥٠.

فتح الأردن وفلسطين

كانت الأردن وفلسطين أقرب بلاد الشام إلى الجزيرة العربية، لذلك بدأت بها القوات العربية عندما أعدها أبو بكر الصديق وتوغل عمرو بن العاص آنذاك إلى أطراف غرة، وانتصر على قرية رومية في الدائن ثم انسحب إلى وادي العربية دون أن يفتح أي مدينة ويقصي على سلطة الروم فيها، وكانت لتلك الحركات المبكرة أهمية في إظهار قوة العرب وعزمهم على مد دولتهم إلى هذه البلاد، وزادت من معرفة العرب بقوات الروم وتوزيعها، وكان لحسن معاملة العرب أثر كبير في زيادة إصعاف ثقة لفلأحين من أهل البلاد بالروم، وانضم إلى جيوشهم الكثير من العشائر المتفرقة التي كانت من قبل تقاتل مع الروم مثل لحم وجدام.

ولم يتابع العرب تثبيت سلطاتهم في فلسطين والأردن في هذه المرحلة وإنما ركزوا جهودهم على القضاء على جيوش الروم التي كانت تتجمع في المدن المحصنة أو في ميادين القتال لمقاومة العرب. وقد أدرك الروم أهمية موقع هذه البلاد فجمعوا فيها الجيوش واختاروا فيها ميادين القتال في أجنادين وفحل واليرموك، حيث إن سيطرتهم على هذه المنطقة تقطع على العرب أي تقدم إلى الشمال.

وبعد أن أحرز العرب انتصارهم الحاسم في معركة اليرموك بادروا إلى إنعاز قوات لتثبيت حكمهم فيها وكانوا يتركون الأهمية الروحية والتجارية والعسكرية لهذه البلاد، إذ إن فيها بيت المقدس، وهو ثاني القبلتين وإليه أسرى الرسول (ص) وكانت علاقاتهم التجارية بمدنها، وخصوصاً غرة وبصرى علاقات قديمة، ومنها كانت تأتي قافلة الأباط بالمتوجات إلى المدينة بعد الهجرة. ثم إن هذه البلاد كانت لها سواحل طويلة على البحر المتوسط، وفيها موانئ للتجارة وللأسطول ويمكن أن يستفيد منها الروم إذا بقيت في أيديهم، بإنزال قوات تهدد مؤخرة العرب وتقطع صلتهم بالجزيرة إضافة إلى صلتها البرية بأواسط بلاد الشام.

وعندما وليَ عمر بن الخطاب الخلافة جعل أبا عبيدة بن الجراح أميراً على الشام، وقد توجه أبو عبيدة لتصفية الروم في أواسط وشمال الشام، ولم يغفل الأردن وفلسطين «فافتتح الأردن، وقاومت طرية ثم استسلمت بعد حصار أيام، وأمن أهلها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكنائسهم ومنازلهم إلا ما جلوا عنه وخلوه، ثم ثاروا واجتمع إليهم قوم من الروم، فاستعاد فتحها كما فتح بيسان وسوسية وأفيق وجرش وبيت راس وقدس والجولان وجميع مدن الأردن وحصونها بغير قتال»^(١)، وبذلك أمن سيطرة العرب على سواد الأردن وجميع أرضه كما فتح عكا وفتح صور وصفورية.

ثم وجه لفتح بقية القرى قواداً، فوجه العاص ففتح غزة وسسبية ونابلس وعمواس وبيت جبرين ويافا ورفع وأعطوا أهلها الأمان على أنفسهم وأموالهم ومنازلهم، وعلى أن الجزية على رقابهم والحراج على أرضهم^(٢). أما بيت المقدس فإن سعيد بن عبد العزيز يذكر أن عمرو بن العاص حاصرها فطلب أهلها الأمان والصلح على مثل ما صلح عليه أهل مدن الشام على أن يكون المتولي للمقد لهم عمرو بن الخطاب معه سنة ١٦^(٣). ويذكر الطبري أن علقمة بن حكيم وأبا أيوب هما اللذان حاصرا بيت المقدس، أما الليث فيقول إن عمر بن الخطاب عندما كان بالجابية بعث خالد بن ثابت المهدي إلى بيت المقدس في جيش، فقاتلهم.

ويذكر الأوزاعي أن بيت المقدس حوصرت بعد أن تم فتح قنسرين وكُورها سنة ١٦، فصالحوا على أن يقيم عمر فينقل ذلك ويكتب لهم

(١) فتوح البلدان ١١٥ تاريخ خليفة ١٩٩ تاريخ ابن عساکر ١/٤٨٥، ويقول الطبري إن هذه الفتح تمت بعد فتح حمص ١/٢٣٩٧.

(٢) فتوح البلدان ١٣٧.

(٣) تاريخ خليفة ١٠٥ عن ابن إسحاق، ويذكر أن الذي فتحها أبو عبيدة وعلى مقدمته خالد بن الوليد.

به^(١). ويذكر الطبري أن عمر جاء لتنظيم إدارة المنطقة وكان العرب يحاصرون إيلياء وهي القدس، فصالحوا عمر على الجزية وفتحوها له^(٢). وذكر أن في كتاب صلحهم أن يخرج الروم، ولا يسكنها اليهود^(٣)، وجعل على إيليا علقمة بن مُجَزَّر^(٤)، وأبدت الرملة مقاومة استسلمت بعدها. وتم ذلك سنة ١٩ بعد فتح قُسرين.

وأبدت بعض المدن الساحلية مقاومة لكثرة من فيها من الروم، والإمدادات التي يرجح أن هرقل أرسلها من طريق البحر، وكان أبو عبيدة، قد وجه إليها عمرو بن العاص ثم أمده بمعاوية ففتحوا المدن الساحلية^(٥) وحرموا الروم من الموانئ التي يعبر منها أسطولهم؛ وإن كانت سيادتهم عليها معرضة لغارات أسطول الروم.

تقدم عمرو بن العاص بعد فتح بيت المقدس إلى قيسارية، فأبدت مقاومة عبيدة لعدة سنوات، ويذكر البلاذري ما يشير إلى أنها كانت أكبر المدن الساحلية فيقول إنه كان فيها ثلاثمائة سوق قانعة، ويحرس سورها مائة ألف، وفيها من المرتزقة سبعمائة ألف، ومن اليهود مائتا ألف، ومن السامرة ثلاثون ألفاً^(٦)؛ وفي هذه الأرقام مبالغ واضحة، ولكنها تدل على سعتها، ولا بد أن أسطول الروم عاونها في المقاومة التي دامت عدة سنين انتهت في شوال سنة ١٩ باستسلامها لمعاوية الذي أرسله يريد للمشاركة في فتحها^(٧)، وباستسلامها للعرب الذين أخذوا من المقاومين فيها سبياً نقلوهم إلى المدينة ووزعوهم على

(١) فتوح البلدان ١٤١ تاريخ خليفه ٨١٢ تاريخ ابن عساكر ٥٥٣/١.

(٢) الطبري ٢٤٠٣/١.

(٣) الطبري ٢٤٠٥/١ - ٦.

(٤) الطبري ٢٤٠٧/١.

(٥) فتوح البلدان ١٣٨.

(٦) فتوح البلدان ١٣٩.

(٧) فتوح البلدان ١٣٩، ١٤١.

أهلها؛ وهي مع عين التمر المدينتان الوحيدتان اللتان ذكرت المصادر نقل سبي
منهما إلى المدينة.

ويفتح قيسارية كمل ضم فلسطين إلى الدولة العربية، ولم يتوان العرب عن
إرسال قوة بقيادة عمرو بن العاص لفتح مصر، وهذا ما ستحدث عنه في فصل
خاص.

موقف الروم

إن المعارك التي خاضها الروم لإيقاف تقدّم العرب في بلاد الشام ومصر أفقدهم عدداً كبيراً من مقاتلتهم، كما أن اندحارهم وانسحابهم أفقدهم بلاداً غنية في مواردها، وعدداً كبيراً من الموانئ للسفن التجارية والبحرية، وكانت للأسطول أهمية كبيرة في دولتهم لأنه يؤمن المواصلات والسيطرة على الأقاليم العديدة التي كانوا يهيمنون عليها في أطراف البحر المتوسط.

وأدرك هرقل بعد وصول الجيوش العربية حمص أن قواته أصبحت من الضعف للدرجة تجعل محاولة الفيم بصلتهم واسترجاع ما ظفروا به عبثاً، ولذلك غادر قاعدته أنطاكية وقال (سلام عليك يا سوريا سلام لا لقاء بعده)^(١). وهذا يعبر عن تقديره الصائب لعدم جدوى أي محاولة جديدة لاستعادة بلاد الشام والقضاء على الدولة العربية.

غير أن اندحار الروم لم يقضي على كل بلاد دولتهم، فقد بقيت لهم أقاليم كثيرة في آسيا الصغرى وفي أوروبا وشمال إفريقيا، كما كانوا يهيمنون على جزر البحر المتوسط. ومع أن تقدّم العرب إلى شمال بلاد الشام كان سريعاً وظافراً، إلا أنه تعطل بسبب طاعون عمواس الذي اجتاح البلاد سنة ١٨ وأمس عدداً من مقاتلتهم، وقضى على عدد من أبرز قوادهم، ورافقه قحط عام في الجزيرة العربية عام الرمادة، فتوقف رحلتهم، واستغل هرقل الفرصة فعمل على إخلاء الأراضي الواقعة في جنوب طوروس، وهدم حصونها ومرارها ليعرقل تقدّم العرب^(٢).

جلاء الموالين للروم

غير أن بقاء دولة الروم بعاصمتها القسطنطينية والأراضي الواسعة التي تهيمن عليها في هضبة الأناضول والبلقان شجع عدداً من الموالين لهم في بلاد الشام

(١) فتوح البلدان ٣٩.

(٢) فتوح البلدان ١٦٢ - ٣.

على الاحتفاظ بولائهم لها؛ ودفع كثيراً من هؤلاء الموالين إلى الهجرة من البلاد التي أصبحت في ظل السيادة الإسلامية، فأجلوا عنها، وذكر البلاذري أخبار عدد ممن أجلوا من بلاد الشام إثر سيطرة العرب، وممن ذكرهم جملة من الأيهم الذي دخل بلاد الروم مرتداً في ثلاثين ألفاً^(١)، وأن الجراجمة هموا بالحقاق بالروم إذ خافوا على أنفسهم^(٢)، وكان الجلاء من بعض المدن الداخلية ومنها دمشق إذ إنه «لما فتحت لحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو بأنطاكية»^(٣). وأشار البلاذري إلى جلاء بعض أهل طرية وإحلائهم بيوتهم^(٤)، وذكر أن الروم أحرقت عسقلان وأجلت أهلها عنها في أيام ابن الزبير^(٥) ولما قَدِمَ أبو عبيدة حلب لم يصادف بها أحداً إذ إن أهلها انتقلوا إلى أنطاكية، ثم صالحهم فعادوا إليها^(٦)، وأن أهل بالس جلا أكثرهم إلى بلاد الروم وأرض الجزيرة^(٧)، وجلا خلق من أهل رأس العين^(٨)، وأهل مرعش^(٩). كما خرجت الروم من مدينة الحدرث وأجلت عنها أهلها، كما فعلت نعلطية^(١٠) وجلا كثير من أهل قاليقلا فلمحقوا ببلاد الروم^(١١).

كان أكثر الجلاء في أهل المدن الساحلية، فلما فتح العرب صيدا وهرقة وجبيل وبيروت وهي سواحل جلا كثير من أهلها^(١٢)، وهرب أهل طرابلس^(١٣)، كما أن بلدة وهي على فرسخين من جملة حرث وجلا عنها

- (١) فتح البلدان ١٣٥.
- (٢) فتح البلدان ١٥٨.
- (٣) فتح البلدان ١٢٢.
- (٤) فتح البلدان ١١٥.
- (٥) فتح البلدان ١١٢.
- (٦) فتح البلدان ١٤٦.
- (٧) فتح البلدان ١٤٩.
- (٨) فتح البلدان ١٧٦.
- (٩) فتح البلدان ١٨٥.
- (١٠) فتح البلدان ١٨٩.
- (١١) فتح البلدان ١٩٦.
- (١٢) فتح البلدان ١٣٥.
- (١٣) فتح البلدان ١٢٦.

أهلها^(١) وكانت أنطرموس حصاً ثم جلا عنه أهله^(٢)، وجلا بعض أهل أنطاكية^(٣).

وكان فيما بين الإسكندرونة وطرسوس حصون ومسالخ للروم ربما أخلاها أهلها وهربوا إلى بلاد الروم خوفاً، وربما نقل إليها من مقاتلة الروم من تشحن به، وقد قيل إن هرقل نقل أهل هذه المدن معه عند انتقاله من أنطاكية لثلا يسير المسلمون من عمارة ما بين أنطاكية وبلاد الروم، وأن هرقل نقل أهل هذه الحصون، وشعثها، فكان المسلمون إذا عزوا لم يجدوا بها أحداً

وانتقل أهل ملطية عنها في أيام عبد الله بن الزبير، وخرجت الروم فشعثها ثم تركتها، فزّلها قوم من النصاري من الأرمس والنسط^(٤)، وأرسل أبو عبيدة بن الجراح وهو بمنبح خالد بن الوليد إلى ناحية مرعش ففتح حصنها على أن جلا أهله ثم أخربه^(٥).

لم تذكر هوية من جلا سوى الذين صَحَّحوا جيلة بن الأبهيم، وهم من عشيرته عسان، وربما فيهم من مؤيديه من إياد - غير أن الهجرة لم تشمل كل العشيرة، فقد بقي عدد غير قليل من غسان وإياد، وأشعل بعضهم ماصب إدارية كبيرة، مما يدل على أن من بقي قطع صلته بمن هاجر، وأنه أحلص الخدمة للدولة العربية، ولعل كثيراً منهم أسلموا.

وكان الجلاء واسعاً في أوائل الفتح، حيث لم تتضح بعد قوة الدولة وسياستها الاستقرارية المعتدلة، ثم تناقص، إن لم ينعدم فيما بعد، عندما تبيّنت سياسة الحكومة الجديدة، وتبيّنت المصالح الواسعة التي تؤمنها الدولة بين بلاد

(١) فتوح البلدان ١٣٢

(٢) فتوح البلدان ١٣٢.

(٣) فتوح البلدان ١٤٦.

(٤) فتوح البلدان ١٨٤.

(٥) فتوح البلدان ١٨٧.

الشام والأقاليم الأخرى بما فيها مصر وشمال إفريقية والحجاز، وقُتِحَتْ أبواب جديدة للصلة مع العراق وأقاليم المشرق بعد أن كانت معرقة بسبب سوء العلاقة بين الساسانيين والروم. ولا بد أن أكثر من جلاهم من الجاليات الإفريقية من رجال الجيش والإدارة، وربما عدد من رجال الدين والتجار وأصحاب الأعمال، ومن المشكوك فيه أن أملاكهم كانت نصف المدن التي قوسم أهلها على أنصاف مارلهم وكائسهم ولا بد أن بعضهم عاد، كما فعل أهل حلب وبعض تغلب.

توطين العرب وإعمارهم الأراضي

تخلص العرب بجلاء مؤيدي الروم عن البلاد الإسلامية من عاصرو قد جعلوا لها بالأمن والاستقرار، ولكنه كان يعقد الدولة الإسلامية لكثير من الخسائر في الإدارة والحياة الحضارية والعسكرية (أو) يؤثر في تدهور الأحوال العمرانية وبخاصة الزراعة وإعمار الأرض، وقد أدرك العرب هذه الأخطار فعملوا على معالجتها بما يجمع العرب ويؤمن الإعمار وأورد البلاذري معلومات وافية عما اتخذوه من تدابير للحفاظ على إعمار البلاد؛ وفي هذا يقول البلاذري «وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها إليه من المسلمين فإن حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الأمداد، فلما استخلف عثمان بن عفان (رض) كتب إلى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشحنها وإقطاع من ينزل بها النقطاع ففعل». وأمر عثمان معاوية «أن يعد في السواحل إذا غرا أو أغزى جيوشاً سوى من فيها من الرتب، وأن يقطع الرتب أرضين ويعطيهم ما جلا عنه أهلهم من المازل ويسبي المساجد ويكبر ما كان ابتى منها قبل خلافته.. ثم إن الناس بعد انتقلوا إلى السواحل من كل ناحية.

وفي أنطاكية وضع معاوية روابط ثم إن عثمان كتب إليه يأمره أن يلزمها

قوماً وأن يقطع قطائع فعمل^(١)، ولما جلا أهل قاليقلا بعث معاوية إليها ألفي رجل وأقطعهم بها القطائع^(٢)، وأقطع الوليد بن عبد الملك جنداً بأنطاكية أرض سلوقية عند الساحل^(٣)، ولما جلا بعض أهل رأس العين «اعتمل المسلمون أراضيهم وازدروعوها بإقطاع»، ثم لما ولي معاوية الشام والجزيرة لعثمان بن عفان أمره أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى ويأذن لهم في احتمال الأراضي التي لا حقَّ فيها لأحد فأنزل بني تميم الرابية، وأنزل المازحين والمديبر أحلاطاً من قيس وأسد وعبرهم، وفعل ذلك في جميع بواحي ديار مصر ورتب ربيعة في ديارها على ذلك^(٤). وقد اعتبر المسلمون من أراضي العشر «ما جلا عنه أهله فأقطعه المسلمون فأحيوه وكان مواتاً لا حقَّ فيه لأحد فأحيوه بإذن الولاة»^(٥)

أما حكم أراضي المدن وذكر البلاذري أن بعضهم صولحوا على أنصاف منازلهم وكنائسهم، ومنها دمشق^(٦)، وطبرية^(٧)، والرملة^(٨)، غير أن معظم المدن لم يحدد فيها مقدار ما أخذه المسلمون، وإنما ذكر أن المدن، ومن ذلك دمشق التي لما فتحت لحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو بأنطاكية فكثرت فضول منازلهم فنزلها المسلمون^(٩)، ولما هرب أهل صيدا وعرقه وجبيل وبيروت رماها معاوية، وشحنها بالمقاتلة وأعطاهم القطائع^(١٠)

(١) فتوح البلدان ١٢٧

(٢) فتوح البلدان ١٤٦.

(٣) فتوح البلدان ١٩٦.

(٤) فتوح البلدان ١٧٧.

(٥) فتوح البلدان ١٥١ (عن مكحول)

(٦) فتوح البلدان ١٢٢ (عن الهيثم بن عدي)

(٧) فتوح البلدان ١١٥ (عن الهيثم بن عدي)

(٨) فتوح البلدان ١٤٦.

(٩) فتوح البلدان ١٢٢

(١٠) فتوح البلدان ١٢٦ - ١٢٧

ولما هرب أهل طرابلس أسكنها معاوية جماعة كبيرة من اليهود^(١)، وأمر عثمان معاوية أن يقطع الرتب أرضين ويعطيهم ما جلا عنه أهله من منازل^(٢)، وقسم السمط حمص «خططاً بين المسلمين حين نزلوها وأسكنهم كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة»^(٣)، ولما فتح المسلمون أنطرسوس بناها معاوية ومضرها وأقطع بها القطائع، وكذلك بمرقية وبلنياس^(٤)، وشحن معاوية اللاذقية وجبلة وأنطرسوس وحصنها وأمضى أمرها على ما أمضى عليه أمر السواحل^(٥).

وأعاد معاوية فتح قيسارية وأسكنها الروابط ووكل بها الحفظة^(٦)، وأقطع أرض سلوقية عند الساحل قرب إنطاكية^(٧)، وكان أبو عبيدة أسكن بالس «قوماً من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قتلهم المسلمين الشام وقوماً لم يكونوا من العرب نزحوا من البوادي من قيس، وأسكن قاصرين قوماً»^(٨).

وفي سنة ٨٤ غزا الصائفة عبد الله بن عبد الملك بن مروان، وأتى المصيصة فبنى حصنها على أساسه القديم وأوضع بها سكاناً من الجند فيهم ثلاثمائة رجل من ذوي البأس والنجدة المعروفين، ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك، وبنى فيها مسجداً فوق تل الحصن^(٩).

وجدد هشام حصن المثقب، وحصن قطرغاش، وحصن مورة، وبغراس، وبوقا^(١٠)، ورتب معاوية في ملطية رابطة من المسلمين، وشحنها بجماعة من

(١) فتوح البلدان ١٢٦.

(٢) فتوح البلدان ١٢٧.

(٣) فتوح البلدان ١٣٢.

(٤) فتوح البلدان ١٣٢.

(٥) فتوح البلدان ١٣٣.

(٦) فتوح البلدان ١٤١.

(٧) فتوح البلدان ١٤٦.

(٨) فتوح البلدان ١٤٩.

(٩) فتوح البلدان ١٦٤.

(١٠) فتوح البلدان ١٦٥.

أهل الشام والجزيرة وغيرها، ثم انتقل أهلها عنها في أيام ابن الزبير وشعثها الروم، فنزلها بعدهم قوم من النصارى من الأرمن والنبط^(١).

وبنى معاوية مدينة مرعش وأسكنها جنوداً، ثم انتقل عنها أهلها عندما كثرت غارات الروم عليها بعد موت يزيد بن معاوية، ثم أعاد العباس بن الوليد بن عبد الملك تعميرها وتحصينها ونقل الناس إليها وبني مسجداً جامعاً، وكان يقطع في كل عام على أهل قنسرين مئةً إليها^(٢).

وأسكن معاوية قاليقلا ألفي رجل وأقطعهم القطائع وجعلهم مرابطة بها^(٣)، وأسكن مسلمة بن عبد الملك مدينة الباب والأبواب أربعة وعشرين ألفاً من أهل الشام على العطاء^(٤)، وبني يزيد بن أسيد أرجيل الصغرى ومدينة أرجيل الكبرى وأنزلهما أهل فلسطين^(٥).

وكانت دولة الروم تواجه عدداً من المشاكل، ذلك أن ولاء أهل المناطق الشرقية منها، وأكثرهم من الأرمن، ظل ولاء غير مصموم لها، كما أن حدودها العربية ظلت معرضة لهجمات السلاف، يضاف إلى ذلك أن المشاكل الناجمة عن اختلاف العقائد الملحية كانت مصدر قلق واضطراب فيها. ولكن كل ذلك لم يصل حد تعرضها للانهايار، فظلت قائمة تكوّن مصدر أكبر خطر يهدد دولة الإسلام ولا سيما الأقاليم الواقعة على أطراف البحر المتوسط من دولة الإسلام، وخصوصاً بأسطولها الذي كان يجوب البحار ومع أن كثيراً من الموالين لدولة الروم في هذه الأقاليم تركوا مواطنهم وانسحبوا مع الروم فأفقدوا هذه الأقاليم عناصر كان يمكن الاستفادة منها في إعمار البلاد، وأخلّوا بنظمها، إلا أن عدداً من هؤلاء الموالين ظلوا مقيمين في دولة الإسلام يُحدثون المشاكل

(١) فتح البلدان ١٨٤.

(٢) فتح البلدان ١٨٥.

(٣) فتح البلدان ١٩٦.

(٤) فتح البلدان ٢٠٦.

(٥) فتح البلدان ٢٠٨.

لها، ومن أبرز ما قاموا به الثورات التي أحدثوها في الاسكندرية والاضطراب الذي أحدثه الجراجمة في بلاد الشام.

غير أن اندحار الروم لم يقض على كل دولتهم، فالتقدم السريع الظافر للجيوش العربية تعطل بسبب طاعون عمواس الذي اجتاح البلاد في السنة الثامنة عشرة للهجرة وأفنى عدداً كبيراً من مقاتلتهم وقضى على عدد من أبرز قوادهم، ورافقه قحط عام في الجزيرة العربية في ما يسمى عام الرمادة، فتوقف زحفهم، واستغل هرقل الفرصة فأخلى الأراضى التي في الأطراف الشمالية من بلاد الشام، وأخربها لكي يعرقل أي محاولة يقوم بها العرب لمتابعة تقدمهم وملاحقة الروم في آسيا الصغرى^(١).

واتخذ له خطأ دفاعياً صمد الروم عنه في جبال طوروس وهي سلاسل جبلية تمتد من رأس البحر المتوسط إلى شمال الجزيرة الفراتية، وهي وعرة ليس فيها إلا مسالك محدودة تجتهد سير الجيوش وحركاتها وتحصنها في دروب محددة مما يسر الدفاع عنها.

والمسطقة التي وراء هذه الحال أراضها متموجة فقيرة بالمتوجات ومباحها قارس، ويكثر فيها سقوط الثلج شتاءً، وأهلها أحلاط من الأرمن والروم، والعرب قليلون فيها، ومدنها متفرقة. وكل هذا يزيد في صعوبة فتحها والسيطرة عليها؛ وقد ظلت سليمة لبعدها عن مبادي القتال مع العرب، وإضافة إليهم أعداد من مؤيدي الروم الذين جلوا عن بلاد الشام والجزيرة الفراتية؛ فزادوا من قواتها وأصبحت دولة الروم أكثر انسجاماً وأشد تماسكاً.

ولم يفقد الروم الأمل في الاحتفاظ بها، فأعادوا تنظيمها لتقف بوجه تقدم الجيوش العربية وشحنوها بالرجال، وجعلوا لها أنظمة إدارية تيسر الدفاع عنها، فكان حكامها من القادة العسكريين وأعطى الجند المقاتلة فيها إقطاعات من

(١) فتوح البلدان ١٦٢ - ٣.

الأرض ليزرعوها ويستقروا فيها، وليكون دفاعهم مزدوجاً لحماية الدولة وحماية أراضيهم الخاصة.

وكان للروم في البحر أسطول فقد فواعده في بلاد الشام ومصر، وخسر بلاداً كانت تمول الأسطول بالأخشاب التي تُصنع منها سفنه، وكذلك الصباغ وربما المقاتلة، ولكنه لم يشتبك في قتال مع العرب فاحتفظ بقوة، وعزز قدرة الروم على مناوشة العرب حتى بعد أن أنشأ العرب أسطولاً لهم.

ولا يخفى أن القسطنطينية، وهي قاعدة ملكهم، ظلت سليمة ونائية عن حدود بلاد الدولة وبإمكانها أن تكون قاعدة لتنظيم المقاومة وإعداد الحملات التي تهدد المسلمين، وكان معظم أهلها يعتقدون المذهب الأرثوذكسي، ويقدرّون الثقافة الإغريقية التي كانت تنسأها الدولة، ولذلك ظلت مصدر خطر يهدد حكم العرب وبلاد الشام بحاسة التي كان فيها مقدم الحلفاء الأمويين.

ولا ريب في أن توسع العرب أفقد لروم ولايات عنية بمواردها ورجالها وموانئها، ولكنه خلّصهم من كثير من المشاكل التي كانت تواجهها في هذه الولايات التي يختلف أهلها عن سكان إقليم آسيا الصغرى والقسطنطينية، وهم من أرومة العرب، ولهم عقائد مدعية تختلف عن المذاهب السائدة في القسطنطينية والتي تبناها أباطرة الدولة البيزنطية.

إن تقلص بلاد دولة الروم بعد توسع المسلمين كان له أثر في زيادة التناسق فيها، وقد تطلّب إعادة تنظيم إدارتها وريادة الاهتمام بأحوال المناطق القريبة من حدود الدولة العربية الجديدة كيما تصمد بوجه تقدّم العرب.

غير أن دولة الروم لم تتخلص من مشاكلها كافة، ذلك أن ولاء أهل المناطق الشرقية منها، وأكثرهم من الأرمن، ظل ولاء غير مضمون لها، كما أن حدودها الغربية ظلت معرضة لهجمات السلاف والبلغار، يضاف إلى ذلك أن المشاكل الناجمة عن اختلاف العقائد المدعية كانت مصدر قلق واضطراب فيها. ولكن كل ذلك لم يصل حد تعرضها للاهيار، فظلت قائمة تكوّن مصدر

أكبر خطر يهدد دولة الإسلام ولا سيما الأقاليم الواقعة على أطراف البحر المتوسط من دولة الإسلام، وخصوصاً بأسطولها الذي كان يجوب البحار.

موقف الدولة الإسلامية

كانت أخطار الروم تشمل أقاليم الدولة الإسلامية الواقعة على البحر المتوسط، وتتطلب معالجتها تعاوناً وتنسيقاً شاملاً في هذه الأقاليم التي كان يدير كلاً منها والى دول سلطات واسعة، ولكن خصوع هؤلاء الولاة إلى خليفة واحد وإدراكهم للمصلحة العامة لدولة الإسلام كانا يدفعانهم إلى التعاون مع بعضهم من أجل تحقيق هذه المصلحة العامة، وقد ارداد توثق التعاون بعد أن صفت الخلافة للأمويين فكان حلفاؤهم المرجع الأعلى في هذا التنسيق الذي حرصوا عليه لمواجهة الروم. ويتجلى هذا التعاون بأوضح مظاهره في استخدام الأسطول الحربي



وكانت بلاد الشام أكثر الأقاليم تعرضاً لأخطار بلاد الروم ليس من تهديد لأسطول سواحلها فحسب، وإنما أيضاً لطول الحدود البرية بينهما، ثم إنه رغم ضي مصر وثروتها ومكانتها المتميزة في صبح السفر، إلا أن بلاد الشام كانت لقربها من بلاد الروم أكثر تعرضاً للخطر، ووضعها أخرج خصوصاً منذ أن أصبحت في زمن الأمويين قاعدة الخلافة.

أدرك معاوية الأخطار التي تأتي من دولة الروم واهتم بمعالجتها منذ أن جمعت له ولاية بلاد الشام، وتابع الحلفاء الأمويين من بعده هذا الاهتمام الذي تطلب الحفاظ على جيش تنفى على عاتقه مهمات القتال المستمر إضافة إلى إعداد أسطول قوي يعزز الجيش وينقل الحفائفة إلى ميادين القتال خصوصاً في الجبر، ويحميها من تقدم الروم، وهذا يعني الاهتمام بالقوات البرية والبحرية والتنسيق بينهما لتحقيق الهدف الأعلى الموحد.

والواجب الرئيس في القتال يقع على القوات البرية، وقد تطلب هذا في

بلاد الشام تنظيمًا عسكرياً خاصاً في إقامة الحصون وتوزيع القوات والاهتمام بها، وتكليف هذه القوات بالاشتراك في الحملات المتتالية للشواتي والصوائف، وتجهيرها، أي إبقائها مدة طويلة في جهات القتال بعيداً عن قواعدها ومقام أهلها.

وكان الجند في زمن خلافة عمر وعثمان يجتمعون بالجابية لقبض العطاء وإقامة البعوث من أرض دمشق حتى نقلهم معاوية إلى معسكر دابق التي أصبحت مجمعاً لعساكر الإسلام في كل صائفة من زمن معاوية بن أبي سفيان، فإذا تكامل العساكر وقبضوا عطاءهم ساروا حينذاك إلى جهاد العدو، واستمر ذلك في أيام بني أمية، ولا سيما في أيام سليمان بن عبد الملك، فإنه أقام دباق سنتين ومسير أخاه مسلمة لغزو القسطنطينية^(١) وكانت الطوالع في كل عام بين ألف وخمسمائة وألفين^(٢)، وكان لجند يغزون نساخهم في المراكب^(٣) أما المراكب فكانت الكبيرة منها تحمل ثلاثة آلاف^(٤).

تنظيم الدفاع عن سواحل بلاد الشام

إن المدن الواقعة على ساحل البحر المتوسط لها أوصاف جغرافية خاصة أثرت في سير فتح العرب لها والحداد عليها، فكلها تقع في سهول ساحلية ضيقة، وتمتد وراءها سلاسل جبال لسان الوعرة، مما يحصر تقدم العرب في مسالك محدودة ويعرقل حرية الحركة في جيوشهم، كما أن هذه المدن كانت مفتوحة من جهة الغرب على البحر المتوسط الذي تتواجد فيه سفن أسطول الروم التي لها حرية الحركة في توجهاته، فكانت تيسر لهذه المدن إمدادات عسكرية ووسائل للانسحاب منها. ومع أن الحركات البحرية تتعطل في الشتاء

(١) بعية الطلب لابن العديم ١٩٦٧، تاريخ دمشق لابن عساكر ١١٩/٢ وانظر الطبري ١٣١٥/٢، ١٣٤١، ١٣٦١.

(٢) فتوح البلدان ١/٤.

(٣) فتوح مصر لابن عبد الحكم ١٩٦.

(٤) المصدر نفسه، ٨٢.

إلا أن طول مدة الدفء يورث لها وقتاً واسعاً قد تفاجيء فيه العرب وتهدد سيطرتهم ما لم تتخذ تدابير خاصة لمواجهتها وكان أبو عبيدة بعد فتحه حمص وحماه أنفذ عبادة بن الصامت إلى اللاذقية ففتحها بعد أن جلا عنها، ثم تقدم أبو عبيدة ففتح أنطاكية.

فتح العرب سريعاً بعض المدن الساحلية، فيروي البلاذري أن يزيد بن أبي سفيان فتح صيدا وعرقه، وجبيل وعلى مقدمته أخوه معاوية، ففتحها فتحاً يسيراً وجلا كثير من أهلها^(١) «وفتح أبو عبيدة اللاذقية وجبلة وأنطرسوس على يدي عبادة بن الصامت»^(٢)، ولا بد أن ذلك تم قبل سنة ١٨ التي توفي فيها يزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة مطاعون عمواس وفي هذا الوقت فتح شرحبيل بن حسنة عكا وصور وصغورية^(٣)، غير أن بعض هذه المدن الساحلية أدت مقاومة لا مد إليها تمت بمعونة من الأسطول الرومي، وقد تأخر فتح قيسارية، ولم تفتح إلا في شوال سنة ١٩^(٤).

أما طرابلس فإن يزيد بن أبي سفيان لم يكن يطمع فيها لحصانتها^(٥)، وتأخر فتحها إلى أن جمعت الشام لمعاوية فوجه في رمن خلافة عثمان، سفيان بن حبيب الأرمي إليها وحاصرها «وسى على أميال منها حصناً سُمي حصن سفيان، وقطع المادة عن أهلها من البحر وغيره، وحاصرهم، فلما اشتد عليهم الحصار اجتمعوا في أحد الحصون الثلاثة وكنوا إلى ملك الروم يسألونه أن يمدهم أو يبعث إليهم بمراكب يهربون فيها إلى ما قبله، فوجه إليهم بمراكب كثيرة فركبوها ليلاً وهربوا»^(٦) وبذلك تيسر لسفيان فتحها.

(١) فتح البلدان ١٢٥

(٢) فتح البلدان ١٣٣

(٣) فتح البلدان ١١٥

(٤) فتح البلدان ١٣٩

(٥) فتح البلدان ١٢٧

(٦) فتح البلدان ١٢٦

ثم استعاد الروم بعض مدن السواحل في آخر خلافة عمر بن الخطاب أو أول خلافة عثمان بن عفان^(١)، غير أن معاوية استعادها منهم، وكان مما استعادوه عسقلان، التي كان عمرو بن العاص قد فتحها ثم تمرد أهلها وأمدتهم الروم، ففتحها معاوية مجدداً وأسكنها الروابط ووكل بها الحفظة^(٢).

وللدفاع عن المدن الساحلية أمر عمر بن الخطاب «في مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها وإقامة الحرم على مناطرها، واتخاذ المواقيد لها» وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها من المسلمين، فإن حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الأمداد^(٣).

وتابع عثمان بن عفان سياسة عمر في ذلك، فلما استخلف «كتب إلى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشحنتها وإقطاع من ينزله إياها القطائع ففعل»، ولم تتعطل هذه التدابير بعد بناء الأسطول، فقد أمر عثمان معاوية «أن يعد في السواحل إذا عزا أو أغزى جيوشاً سوى من فيها من الرتب، وأن يقطع الرتب أرضين ويعطيهم ما جلا عنه أهل من المنارل، ويسني المساجد ويكرم ما كان ابتس منها قبل خلافته». ثم إن الساس بعد انتقلوا إلى السواحل من كل ناحية^(٤).

ولما استعاد معاوية في زمن خلافة عثمان مدن السواحل من الروم «رمها وشحنها بالمقاتلة وأعطاهم القطائع»^(٥) ولما فتح طرابلس كان يوجه في كل عام إليها «جماعة كثيفة من الجند يشحنها بهم ويوليها عاملاً، فإذا انقلب البحر قفل

(١) فتح البلدان ١٢٥.

(٢) فتح البلدان ١٤٢.

(٣) فتح البلدان ١٢٦.

(٤) فتح البلدان ١٢٦.

(٥) فتح البلدان ١٢٥، ١٢٧.

وبقي العامل في حممية منهم بسيرة، فلم يزل الأمر فيها جارياً على ذلك حتى وليَّ عبد الملك^(١)، غير أن الروم استرجعوها في زمن عبد الملك، ثم استعادها الوليد منهم^(٢).

وكانت اللاذقية وجبله وأنطرسوس بعد أن فتحها أبو عبيدة^(٣) يبوكل بها حفظة إلى انغلاق البحر، فلما كانت شحنة معاوية السواحل وتحصينه إليها شحنها وحصلها وأمضى أمرها على ما أمضى عليه أمر السواحل^(٤)، وكذلك فعل بمرقية وبلنيس^(٥).

رم معاوية عكا عندما تحرك منها لغزو قبرص سنة ٣٤، ورم صور، ثم خربت فجدها عبد الملك^(٦) ونقل معاوية قوماً من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن: صور وعكا وغيرها سنة اثنتين وأربعين^(٧)، ونقل من أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص إلى أنطاكية في هذه السنة أو قبلها أو بعدها^(٨). وكانت الروم قد خرجت من الساحل فأناخت على أنطاكية^(٩).

وفي سنة تسع وأربعين أو سنة خمسين نقل معاوية إلى السواحل قوماً من رط البصرة والسيابجة وأنزل بعضهم أنطاكية، وفي أنطاكية محلة تعرف بالزط، كما أن بيقا، وهي من عمل أنطاكية، قوم من أولادهم، ثم نقل الوليد بن عبد الملك إلى أنطاكية قوماً من السد، ممن حملهم محمد بن القاسم إلى الحجاج فبعث بهم الحجاج إلى الشام^(١٠).

(١) فتوح البلدان ١٢٦ - ٧.

(٢) فتوح البلدان ١٣٣.

(٣) فتوح البلدان ١٣٢.

(٤) فتوح البلدان ١١٦.

(٥) فتوح البلدان ١٢٩.

(٦) فتوح البلدان ١٤٣، ١٦١.

(٧) فتوح البلدان ١٤٧.

(٨) فتوح البلدان ١٦١.

وفي فتنة ابن الزبير (حوالي ٦٥هـ) أخربت الروم عسقلان وقيسارية وأجلت أهلها عنها، فلما وليّ عبد الملك حصصهم وشحنهما بالرجال^(١).

وفي سنة ٨٩ أغار الروم على الاسكندرون، ثم أغاروا في سنة مائة على اللاذقية فطردوهم العرب، وأمر عمر بن عبد العزيز ببناء اللاذقية وتحصيتها، وزاد يزيد بن عبد الملك في شحنتها^(٢).

(١) فتوح البلدان ١٤٢

(٢) فتوح البلدان ١٣٢.



سازمان اسناد و کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران

الفصل العشرون

نشأة البحرية العربية

اقتصر دفاع العرب عن بلاد الشام في عهد الحليفة عمر بن الخطاب على التنظيمات والحركات البرية، وكان المقاتلة العرب مشغولين في المعارك والفتوح المتتالية، فلم يكن لديهم الوقت الكافي لإنشاء الأسطول والتدريب على القتال البحري، كما أنهم لم يستطيعوا التوجه إلى الملاحين القدماء في الأقاليم التي ضموها حديثاً إلى دولتهم، لاجتماع ميل نحو بلاد الروم، فضلاً عن أن القوات البرية ظفرت بنجاحات باهرة جعلتها أهلاً للثقة والاهتمام وكان معاوية يدرك الأخطار التي تهدد بلاد الشام من جراء عدم وجود أسطول بحري عند المسلمين، فحاول إقناع الحليفة عمر بن الخطاب بالموافقة على إنشاء أسطول إسلامي، ولكن عمر أصرّ على عدم الموافقة لأنه رأى في ذلك مجازفة غير مأمونة العواقب^(١).

لم تكن الملاحة مجهولة عند العرب، فمن المعروف أنهم أسهموا فيها منذ أقدم الأزمنة، واحتكر ملاحوهم من أهل اليمن وعمان الملاحة في المحيط الهندي ونقل السلع من البلاد الواقعة في أطرافه وفي الشرق الأقصى، كما أن

(١) انظر فتوح البلدان ١٢٦/١٥١؛ تاريخ حيلة ١٣٥؛ الطبري ٢٨٢٠/١، ٢٨٢٥ المعط للمقريزي ١٩٠/٢.

الفينيقيين كانوا من أكبر ملاحى البحر المتوسط قبل أن يقضي الرومان على نفوذهم، ولا بد أن كثيراً من أهل مدد بلاد الشام الواقعة على سواحل البحر المتوسط كانوا يعملون في صناعة السفن والملاحة، ومثل هذا كان يعمل به كثير من المصريين، ومما يشرّ لهم ذلك توافر الأخشاب في مصر ولبنان لصناعة السفن، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تذكر البحر والسفن، مما يدل على أنه حتى أهل الحجاز الذين كانت بلادهم مركز الخلافة ومنهم الخلفاء وكثير من القادة وموجهي السياسة العليا للدولة، كانوا على معرفة بأمر الملاحة والسفن.

ولما وليّ عثمان بن عفان الخلافة كان مقتنعاً بأهمية السفن فأباح إنشاء الأساطيل، فأنشئت أربعة أساطيل كان الأول منها في النيل عرصه فيما يظهر الملاحة فيه، والثاني في القلزم، أي السويس والعرض منه نقل المواد العدائية، وخصوصاً الحنطة، إلى الحجاز، لهلان الأسطولان غرضهما تجاري سلمي ولم يقيم أيّ منهما بعمل حربي. وأنشئ أسطول ثالث في الفسطاط حيث أقيمت دار لصناعة السفن في جزيرة الروضة على النيل، ولعل هذا الأسطول كان معداً لإسناد القتال في البحر المتوسط، وكان يصنع من أخشاب الغابات الموجودة في مصر، ويقوم بعمله صناع من المصريين يعملون عادة ستة أشهر في السنة بموجب عقود مع الولاة العرب^(١).

والأسطول الإسلامي الرابع هو الذي أنشأ معاوية، فقد أمر بجمع الصناع التجارين فجمعوا إدارتهم في السواحل، وكانت تصنع السفن من أخشاب الغابات، ودار صناعتها في عكا، ثم نقلت إلى صور في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك، وظلت قاعدة الأسطول حتى العصر العباسي حيث أمر المتوكل في سنة ٢٤٧ بترتيب المراكب بعكا وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة^(٢).

(١) انظر تفاصيل وافية في كتاب «التظيم لبحري الإسلامي في شرق المتوسط» لعلي محمود فهمي

(٢) فتح البلدان ١١٦، وانظر عن عكا تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٠/٢.

تطلب بناء الأسطول واستكمال عدته بعض الوقت، وفي سنة ٢٨هـ أصبح قوياً للدرجة مكنت معاوية في تلك السنة من القيام بعملية على قبرص، قادها بنفسه بعد أن أتم إعدادها وحافظ على سريتها ولم يجبر أحداً على الاشتراك فيها، وإنما ترك باب التطوع والاحتير مفتوحاً لمن يريد الانضمام إليها، ومع هذا فقد تطوع للاشتراك فيها عدد من بارزي الصحابة، ومنهم أبو الدرداء وصحب معاوية عدد ممن شاركوا فيها زوجاتهم^(١).

ولقبرص أهمية كبيرة، فهي جزيرة واسعة قرية من سواحل بلاد الشام، تصلح أن تكون قاعدة يهدد الروم منها هذه السواحل، وسيطرة العرب عليها يبعد عنهم خطر الروم، ويؤمن هيمنتهم على شرق البحر المتوسط والتحكم في ساحل إنطاكية وجنوب الأناضول، ويسر لهم تهديد حركات سفن الروم الحربية والتجارية في تلك المنطقة.

كانت عزوة قبرص أول عزوة بحرية، ولم يركب المسلمون بحر الروم قلعها، وتحرك معاوية من عكا سنة ٢٧هـ، ومعه مراكب كثيرة، ودخل قبرص دون مقاومة، وعقد مع أهلها صلحاً يؤدون بموجباً للمسلمين سعة آلاف ومائتي دينار في كل عام، وصالحهم الروم قبل ذلك، فهم يؤدون فرجين، واشترطوا ألا يمنعهم المسلمون أداء الصلح إلى الروم، واشترط عليهم المسلمون ألا يقتلوا عنهم من أرادهم من ورائهم، وأن يؤدوا المسلمين سيرة عدوهم من الروم، فكان المسلمون إذا ركوا البحر لم يعرضوا لهم ولم ينصرهم أهل قبرص ولم ينصروا عليهم^(٢)، أي إنهم يقعون على الحياد.

غير أن أهل قبرص لم يحافظوا على شروط الصلح، ففي سنة ٣٢هـ، أعاثوا الروم على الغزو في البحر بمراكب أعطوهم إياها، فغزاهم معاوية سنة ٣٣ في خمسمائة مركب، ففتح قبرص عنوة، فقتل وسبى ثم أقرهم على صلحهم، وبعث إليها ثلثي عشر ألفاً منهم أهل دهبان، فبنوا فيها المساجد،

(١) فتوح البلدان ١٥٣، الطبري ٢٨٢٦/١

(٢) فتوح البلدان ١٥٢

ونقل إليها جماعة من بعليك، وبنى بها مدينة، وأقاموا يعطون الأعطية إلى أن توفي معاوية^(١).

ظلت الحامية العربية في قبرص إلى أن ولي يزيد «فأقل ذلك البعث وأمر بهدم المدينة»، ويروى أنه فعل ذلك لقاء مبلغ من المال أحذه من الروم، «فلما قتلوا هدم أهل قبرص مدينتهم ومساحدها»^(٢).

غير أن قبرص ظلت تدفع الجزية للمسلمين، ثم زادها عليهم عبد الملك فجعلها ألف دينار، ثم أرجعها عمر بن عبد العزيز إلى ستمائة، وردّها هشام إلى ألف. وفي أوائل الدولة العباسية اتخلو مواقف مشبوهة فأراد العباسيون معاقبتهم، وأثار ذلك جدلاً عند الفقهاء^(٣).

أدرك الروم خطر تآمر القوة البحرية الإسلامية على سلطانهم في البحر المتوسط، بعد أن فقدوا بلاد الشام ومصر وكثيراً من أقاليم شمال إفريقيا، فجمعوا أسطولاً ضخماً تذكر المصادر العربية أنه يبلغ ألف سفينة، وقد يكون في هذا الرقم مبالغة، إلا أنه لا يقل بأي حال عن خمسمائة سفينة، وتقدموا فيه حارمين على تحطيم الأسطول العربي واستعادة سيادتهم في شرق البحر المتوسط.

أما العرب فقررُوا بدورهم العمل على الاحتفاظ بسيادتهم فأرسلوا في سنة ٢٣٤هـ أسطولاً قوامه مائتا سفينة بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح والي مصر، لاقى الأسطول الرومي قرب سواحل الأناضول الجوية وشبت معركة تسمى «ذات الصواري» لكثرة السفن التي اشتبكت فيها، وتقاتلت سمن الفريقين من بعضها، فكان المقاتلون يقاتلون بالنبل والحجارة، ثم ربط العرب مراكبهم بمراكب الروم بالسلاسل، وأنشبا القتال على ظهر السفن، وكأنه قتال على البر فانتصر العرب انتصاراً تاماً، وعطبوا أكثر مراكب الروم وقتلوا رجالها، وفرُّ

(١) فتوح البلدان ١٥٢، ١٥٣، الطبري ٢٩٠٧/١، ٢٩٢٦.

(٢) فتوح البلدان ١٥٢ - ١٥٣.

(٣) فتوح البلدان ١٥٤، الأموال لأبي عبيد ١٧١ - ١٧٥.

الامبراطور قسطنطين، وكان قائد الروم فيها والي صقلية حيث توفي على أثرها^(١).

كان اندحار الروم في موقعة ذات الصواري صديق الأثر، فلم يقوموا بعده بعمل لاستعادة سيادتهم في شرق البحر المتوسط، وتوقفوا عن غزو المدن الإسلامية على ساحله، وقد تلاه انشغول الدولة بمشاكل داخلية.

كان انتصار العرب في ذات الصواري انتصاراً كبيراً، غير أنهم لم يستغلوه بسبب الانقسامات التي حدثت بينهم بعد مقتل عثمان وما تلاه من نزاع بين علي ومعاوية فعقد معاوية صلحاً مع الروم على أن يؤدي إليهم مالاً^(٢).

تابع معاوية بعد أن صغت له الخلافة الاهتمام بأمر البحر وتأمين سيطرة الإسلام فيه، وقام قائده جنادة بن أبي أمية الأزدي بفتح رودس سنة ٥٢، ثم فتح جزيرة أرواد سنة ٥٤ وأسكنهم المسلمين، كما فتح هذا القائد إقريطش (كريت)^(٣)، وعرا معاوية بن حليج صقلية لأول مرة^(٤).

غير أن الأسطول البيزنطي لم يُقْض عليه، ففي سنة ٥٣ غزا الروم البرلس في مصر، واستشهد حلقمة بن يزيد في جمع كبير من الناس^(٥).

واستخدم معاوية في غزو البحر المقاتلة من أهل اليمن، ولعله فعل ذلك للإفادة من خيراتهم في الملاحة والقتال في البحر، ويبدو أنه كان يوفر لهم عطاء أكبر مما كان يوفره لمقاتلة البر، ثم اشترك في قتال البحر مقاتلة من مصر، فيروي ابن عساكر: «كان معاوية يعزي اليمن في البحر ويغزيهما (اليمن

(١) فتوح مصر لأبن عبد الحكم ١١٩٠ ولالة مصر للكندي ١١٣ التنبيه والإشراف للمسعودي ١٣٥.

(٢) فتوح البلدان ١٥٨.

(٣) فتوح البلدان ٢٣٥. وينقل الطبري عن لوقدي أن رودس فتح سنة ١٥٣ (١/١) وأرواد سنة ٥٤ (١/١) وأن جنادة شتى سنة ٥٦ (١/١) وأنه غزا البحر في سنتي ٥٨ (١/١) و٥٩ (١/١) وأنه هزم مدينة رودس سنة ٦٠ (١/١).

(٤) فتوح البلدان ٢٣٤.

(٥) الولاة للكندي ٣٨.

ومضّر) في البر» وأنه قال لمسكين الدرهمي «أنا أغزيكم في البحر لأنه أرفق من البر وأقل مؤنة وأنا أعاقب بينكم في البر والبحر»^(١). ولعل هذا هو المبرر لأن يكون قائد البحر في رمة جنادة بن عوف الأزدي^(٢)، وكان مقرباً من معاوية حتى إنه أراد استلحاقه أحاً كما فعل برباد والي العراق، ولكن جنادة أبي ذلك^(٣).

ولما وليّ يزيد الخلافة أوقف غزو البحر، كما أوقف الشواتي، وسحب الحاميات الإسلامية من الجزر التي فتحوها في شرق البحر المتوسط، وجعل الاعتماد الرئيس على القوات البرية التي أفلحت في نشر دولة الإسلام على أقاليم شرق وجنوب وغرب البحر المتوسط كافة، فحرمت أساطيل الروم من قواعدها في تلك الأقاليم، علماً بأن المسلمين أقاموا في الأندلس وإفريقية دور صناعة وأسطولاً^(٤) فيما بعد، ومن الطيبي أن هذا لا يمتد إلى الملاحة الحرة التي ظلت نشطة وأكثرها بيد العرب

مقاتلة الروم وحصار القسطنطينية

أدرك معاوية أن الخطر على أمن بلاد الشام وأقاليم البحر المتوسط التي صمها العرب إلى دولتهم سيظل قائماً ما دامت الدولة البيزنطية قائمة، وأن عماد هذه الدولة هو عاصمتها القسطنطينية، فالسبيل الوحيد لقطع دابرها والقضاء عليها هو الاستيلاء على تلك العاصمة. ويروي خليفة بن خياط أنه في سنة ٣٢ هـ غزا معاوية المضيق من القسطنطينية^(٥) وهذه المحاولة، إن صحّت، فهي تعبر عن إدراك معاوية أهمية القسطنطينية. ولم تذكر المصادر تفاصيل عن هذه العزوة التي حدثت بعد إنشاء المسلمين أسطولهم الحربي، كما أن خليفة لم يذكر الطريق الذي سلكه معاوية في العزوة، ولعله سلك طريق البر فيها ولم يستعن

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٠/٢.

(٢) تاريخ خليفة ١٥٩.

(٣) الأنساب لابن حزم ٣٨٦.

(٤) تاريخ الإسلام للذهبي ١٢٠/٢.

(٥) تاريخ خليفة ١٤٣.

بالأسطول الإسلامي، كما أن هذه الحركة لم تكن كبيرة، ولم تظهر بنجاح، فلم يتردد ذكرها في المصادر، ولم يدخلها المسعودي في عداد محاولات العرب فتح القسطنطينية.

ثم انشغل معاوية والدولة الإسلامية بالزاعات الداخلية بعد مقتل عثمان فاستغل الروم ذلك، وحاولوا تهديد الدولة، فاضطر معاوية إلى موادعتهم ودفع مبلغ من المال لهم للكف عن محاولاتهم^(١)، فلما صفت له الخلافة عاد إلى الاهتمام بأمر الروم وقتالهم والعمل على اجتثاث خطرهم.

ويروي الواقدي أنه في سنة ٤٣، غزا بسر بن أبي أرطاة الروم وشق في أرضهم حتى بلغ القسطنطينية. وذكرت المصادر غزو بسر أرض الروم^(٢) غير أنهم لم يذكروا وصوله القسطنطينية أو طرده بنجاح كبير.

حصار القسطنطينية الأول

وأول حملة كبيرة لفتح القسطنطينية هي التي أنفذها معاوية بن أبي سفيان في سنة ٥٠هـ، ومهد لها بحملات تتابعت أربع سنوات على آسيا الصغرى، وكانت «شواتي» يقيم في كل منها الجيش في الشتاء، ثم تقدم الجيش السري الكبير على رأسه يزيد بن معاوية، يسانده أسطول بحري قوي، وشارك في الحملة عدد من الصحابة، من أبرزهم أبو أيوب الأنصاري، الذي كان الرسول (ص) قد نزل داره في أول الهجرة^(٣).

(١) تاريخ خليفة ١١٨٩ فتح البلدان ١١٦١ أسباب الأشراف ٢٩٩/٥ تاريخ الهمقوي ٣١٣/٢ مروج الذهب ٣٦٣/١

(٢) الطبري ٢٧/٢ تاريخ خليفة ١١٩٠ تاريخ الهمقوي ٢١٣/٢

(٣) الطبري ١٨٦/٢ تاريخ خليفة ١١٩٦ أسباب الأشراف ٤ - ١٧٠/١ - ٤ - ٣١٣/٢ سبب قریش لعصبة الزبيري ١١٣٠ المحامد والمساوي لليهفي ١٤.

وعن مقاتلة الروم وحصار القسطنطينية أبحاث كثيرة من أبرزها كتاب عبد الهادي شعيرة «الراع بين العرب والروم» (بالفرنسية) ويبحث كشارد حملات العرب على القسطنطينية المنشور في المجلة الآسيوية ١٩٢٦، وكتاب إبراهيم العدوي «القوات البحرية الإسلامية»

تقدّم الجيش مخترباً آسيا الصغرى حتى وصل القسطنطينية فحاصرها سنة ٥٣ تحمّل فيها العاصمة كثيراً من الشدائد غير أنها صمدت، وأضرمت النار الإغريقية بسفن المسلمين فأدركوا عدم جدوى الحصار وانسحبوا.

حصار القسطنطينية الكبير

أدرك الوليد بن عبد الملك أن الصوائف والشواتي تقتصر على مناطق الحدود، وتستنزف كثيراً من الجهود والأموال والرجال، وأن الخطر البيزنطي سيبقى ماثلاً ما لم يتم الاستيلاء على القسطنطينية واجتثاث الروم، فأعد حملة تتكون، فيما يقال من مائتي ألف جندي وخمسة آلاف سفينة، وأودع قيادتها لأخيه مسلمة بن عبد الملك يعاونه عبد الله البطل الذي كان من أشجع الفرسان المسلمين. غير أن الوليد توفي قبل إنعاده الحملة، وولّى الخلافة بعده سليمان الذي كان من أول أعماله إنفاذ الحملة.

تقدمت الحملة سنة ٩٧ في أواسط آسيا الصغرى، وفتحت عمورية حيث كان أهل تلك المنطقة مستائين من حكم الإمراةكور البيزنطي، ثم توجهت إلى القسطنطينية فوصلتها، وعبرت بعض القوات العربية الر الأوروبي فأكملت تطويق العاصمة وحاصرتها حصاراً شديداً، وكان يعززها أسطول كبير بقيادة عمر بن هبيرة^(١). غير أن أهل القسطنطينية صمدوا لهذا الحصار، وولوا عرشهم ليو الإيسوري وهو قائد ماهر كان قد شارك في عدد من الحروب ضد العرب، وكان يعرف العربية، ويعرف أساليب العرب في القتال، فاستطاع أن يصمد وأن يبث الحماس في قلوب سكان العاصمة المحاصرة، ثم اتصل بالبحر وحرضهم على الهجوم على العرب، غير أن العرب لم يستطيعوا أن يفتحوا ثغرة في أسوار القسطنطينية، وتدمر الكثير من سفهم بفعل النار الإغريقية وهي قذائف نارية لا تنطفئ بالماء كما تأثر جيشهم ببرد الشتاء القاسي وينقص الأغذية

(١) الطبري ١٣٠٦/١٢، ١١٣/٥ تاريخ خليفة ٢١٩، تاريخ اليعقوبي ٤٣٤٢/٢، وانظر عن الأسطول: الطبري ١٣٠٦/٢، التيه والإنراف ١٤١

وخصوصاً أن معظم الفلاحين في المنطقة هربوا وتركوا أراضيهم دون ررع. وكانت قواعد الجيش العربي بعيدة جداً، ثم تعرض هذا الجيش للوباء. فأدرك المسلمون حينذاك عدم إمكان تحقيق عرضهم في فتح القسطنطينية بعد أن قضوا في حصارها مستتين، فلما وليّ عمر بن عبد العزيز الخلافة أمر بسحب الجيش ووجهه خيلاً وطعاماً لتيسير انسحاب المسلمين^(١).

خلدت هذه الحملة اسم مسلمة وعبد الله البطال، ووضعت مسلمة في مصاف أعظم القواد الذين أنجبهم الإسلام إلا أنها لم تحقق غرضها في فتح القسطنطينية، فكانت هذه الحملة آخر محاولة جدية يقوم بها العرب لفتح القسطنطينية وإزالة دولة الروم، كما أنها كانت آخر محاولة يقوم بها الأمويون للتوغل في آسيا الصغرى، وقد اتخل العرب منذ ذلك الوقت موقفاً دفاعياً بشكل عام

(١) تاريخ حلبعة ٢٢٦ هـ الطبري ١٣٤١/٢



الفصل الحادي والعشرون

الدفاع البري عن الشام

بعد أن دمر العرب الجيش البيزنطي في اليرموك وفتحوا بلاد الشام وجهوا قواتهم شرقاً نحو الجزيرة الفراتية وأرمينية، ولكنهم توقفوا عند أطراف جبال طوروس ولم يحاولوا تجاوزها. واغتنم الروم هذه الفرصة فأخربوا كثيراً من الحصون التي في تلك المنطقة وأجندوا أهلها لكي يحرموا العرب من الإفادة منها وتحصنوا في مرتفعات طوروس، وبذلك كانوا يطلقون على شمال بلاد الشام، ويكوّنون مصدر خطر على الحكم الإسلامي علماً بأن هذه المنطقة تمر بها أقصر الطرق بين القسطنطينية وبلاد الشام.

يقول البلاغري «ثعور المسلمين الشامية أيام عمر وعثمان (رض) وما بعد ذلك أنطاكية وغيرها من المدن التي سمّاها الرشيد العواصم»^(١)، ويقول أيضاً إن الرشيد «أعرد منبج وديوك ورحسان وقورس وأنطاكية وتيزين وسمّاها العواصم»^(٢). ويذكر عن البلدان الثلاثة الأولى أن أبا عبيدة فتحها وأنه ولى «كل كورة فتحها عاملاً وضم إليه جماعة من المسلمين وشحن النواحي المخوفة»^(٣)، كما يذكر أن المسلمين كانوا «كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رقبوا فيها قدر من يحتاج لها إليه من المسلمين، فإن حدث في شيء

(١) فتوح البلدان ١٦٢.

(٢) فتوح البلدان ١٣١، وانظر ياقوت ٧٤٢/٣.

(٣) فتوح البلدان ٣١٥.

منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الأمداد، فلما استخلف عثمان بن عفان (رض) كتب إلى معاوية بنحضير السرحل وشحنها وإقطاع من ينزله إياها القطائع ففعل^(١). ويذكر أيضاً أن أبا عبيدة افتتح اللاذقية وجبلة وأنطرطوس على يدي عبادة بن الصامت، وكان يركز بها حملة إلى انغلاق البحر، فلما كانت شحنة معاوية السواحل ونحسينه إياها شحنها وحضنها وأمضى أمرها على ما أمضى عليه أمر السواحل^(٢).

يظهر من هذا أن المنطقة الخطرة «لشغور» كانت محصورة بين أنطاكية ومنبج، وأن هاتين المدينتين هما الركيزتان، ومن الطبيعي أن أنطاكية كانت أعظم خطراً وأكثر أهمية لأنها كانت، بعد دمشق، أكبر مدينة في بلاد الشام، ومن أعظم معاقل المسيحية والثقافة الإغريقية، وكانت من أكبر مواسم البحر المتوسط الذي يهيمن عليه الأسطول البيزنطي. ولما أحرز العرب انتصاراتهم الأولى في بلاد الشام اتخذوا مرقل قاعدة لها لإدارة الحرب مع المسلمين^(٣)، ولما فتحت دمشق لحق به فيها عدد من أهل دمشق^(٤)، فلما تقدّم العرب وفتحوا حلب غادرها إلى القسطنطينية^(٥).

وقد أبدت أنطاكية مقاومة للعرب، ولكن أبا عبيدة تغلب على المقاومة وفتحها وجلا بعض أهلها^(٦)، ثم ثارت من جديد فأعاد فتحها^(٧) ورتب فيها جماعة من شجعان المسلمين فكانوا رابطة فيها^(٨) فلما ولي عثمان الخلافة أقام

(١) فتوح البلدان ١٢٧.

(٢) فتوح البلدان ١٣٣.

(٣) فتوح البلدان ١١٣.

(٤) فتوح البلدان ١٣٢.

(٥) فتوح البلدان ١٣٦.

(٦) فتوح البلدان ١٤٦، ١٤٨.

(٧) فتوح البلدان ١٤٦، ١٥٨.

(٨) فتوح البلدان ١٤٦.

فيها حامية وأقطعهم قطائع^(١)، ولما استقرت لخلافة معاوية نقل إليها سنة ٤٢ «جماعة من الفرس وأهل بعلبك وحمص والمصريين»^(٢) وفي سنة ٤٩ نقل إلى السواحل قوماً من زط المصرية والسبيجة وأبرل بعضهم أنطاكية^(٣) غير أنه نقل بعض فرسها إلى سواحل الأردن وعكا^(٤).

يقول البلاخري: «كان فيما بين الاسكندرونة وطرسوس حصون ومسالح للروم.. فربما أحلاها أهلها وهربوا إلى بلاد الروم خوفاً، وربما نقل إليهم من مقاتلة الروم من تشحن به، وقد قيل إن هرقل أدخل أهل هذه المدن معه عند انتقاله من أنطاكية لثلا يسير المسلمون في عمارة ما بين أنطاكية وبلاد الروم»^(٥) فلما عزأ أبو عبيدة الصائفة فمرّ بالمصيصة وطرسوس.. جلا أهلها وأهل الحصون التي تليها، فلما عرا معاوية غروة عمورية في سنة خمس وعشرين وجد الحصون فيما بين أنطاكية وطرسوس حالية، فوقف عليها جماعة من أهل الشام والجزيرة وقنسرين حتى أنصرف^(٦) من عزائه. واستمر ولاية الطوائف يعملون مثل عمله^(٧)، ففي سنة ٣٦ غزا معاوية من ناحية المصيصة فلما خرج جعل لا يمر حصن فيما بينه وبين أنطاكية إلا هدمه^(٨). ومن الواضح أن هذه تدابير دفاعية لحرمات الروم من قواعد يعيرون منها على المسلمين أو يراقبهم

كانت أنطاكية القاعدة العسكرية الرئيسة، فتحصينها بومن سد الشفرة التي يمكن أن ينعد منها الروم إلى بلاد الشام، ويلاحظ أن الأسطول البيزنطي كان في السنوات الأولى التي تلت الفتح المصدر الرئيس المباشر للخطر الذي يهدد هذه البلاد، وأن معاوية منذ أن ولي الشام حصّن عدداً من مدن السواحل

(١) فتوح البلدان ١٤٧.

(٢) فتوح البلدان ١٤٧.

(٣) فتوح البلدان ١٦١.

(٤) فتوح البلدان ١٦١.

(٥) فتوح البلدان ١٦٢.

(٦) فتوح البلدان ١٦٤.

(٧) فتوح البلدان ١٦٤.

وشحنها. ومن الطبيعي أن العامل الأكبر في تأمين سيطرة العرب على أنطاكية هو سيطرتهم على البحر بعد إنشائهم الأسطول وانتصارهم في ذات الصواري. غير أن الروم عملوا على حق المشاكل في منطقتها بتحريضهم الجراجمة على القيام ببعض الاضطرابات مما أقلق الإدارة الإسلامية ولكنها استطاعت أخيراً أن تتغلب عليهم.

وبالقرب من أنطاكية عدد من الأماكن التي لها علاقة بحركات الجيوش. وأقرب هذه الأماكن هي قورس وكانت «كلمسلة لأنطاكية، يأتيها في كل عام طالعة من جند أنطاكية ومقاتلتها، ثم حوّل إليها ربع من أرباع أنطاكية وقطعت الطوالع عنها»^(١).

أما الجناح الشرقي من الثغور التي كانت في السبيل الأولى من الفتح الإسلامي فكانت تقع أمام الجزيرة وعلى جاسي العرات، وأهلها عموماً غير مؤيدين للروم، ولذلك لم يلتحق بهم من أهلها إلا القليل، كما كانت فيها أراضي زراعية واسعة وهي أبعد من ثغور الجناح الغربي عن القسطنطينية وقواعد الهنستيين غير أنها كانت المنفذ الذي يستطيع الروم إذا اخترقوه أن يفصلوا بلاد الشام عن الجزيرة، ويهندوا العراق خاصة، ولذلك كان أكثر تعرضاً لهجمات الروم وخصوصاً في أوائل العصر العباسي.

واهتم العرب بتعزيز مواقعهم في هذه البلاد، ولما فتح أبو عبيدة بالس وكان أكثر أهلها قد جلوا إلى بلاد الروم، رتب بها «جماعة من المقاتلة وأسكنها قوماً من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام، وقوماً لم يكونوا من البعوث، بزعموا من البوادي من قيس، وأسكن قاصرين قوماً ثم رفضوها أو أعقابهم»^(٢).

ثم لما ولي معاوية الشام والجزيرة لعثمان بن عفان (رض) أمره أن يتول العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى، ويأذن لهم في اعتمال الأرضين التي

(١) فتوح البلدان ١٤٨.

(٢) فتوح البلدان ١٥٠.

لا حق فيها لأحد، فأنزل بني تميم الرايية، وأنزل المازحين والمدير أخلاطاً من قيس وأسد وغيرهم، وفعل ذلك في جميع نواحي ديار مصر، ورثب ريبة في ديارها على ذلك، وألزم المدن والقرى والمسالح من يقوم بحفظها وبذب عنها من أهل العطاء ثم جعلها مع عماله^(١)

وكانت منبج ذات موقع جغرافي متميز، فهي تقع على الفرات، ويمر منها الطريق بين بلاد الجزيرة وبلاد الشام، وقد جدد جسرهما في خلافة عثمان، وكانت تسلكه الصوائف^(٢).

ولما توسعت الدولة في أوائل خلافة عثمان وفتحت منطقة ارتب فيها معاوية رابطة من المسلمين مع عاملها، وتبناها معاوية وهو يريد دخول الروم لشحنها بجماعة من أهل الشام والجزيرة وغيرهما. فكانت طريق الصوائف، ثم إن أهلها انتقلوا عنها في أيام عبد الله بن الزبير، وخرجت الروم فشعثتها ثم تركتها، فنزلها قوم من النصارى من الأرمن والسطا، وقد همر المسلمون على أثر ذلك طرندة، غير أن عمر بن عبد العزيز أعاد إعمار منطقة^(٣).

ثم فتح العرب مرعش في ولاية أبي عبيدة بن الجراح وعزا منها سفيا بن عوف بلاد الروم، ثم أسكنها معاوية جنوداً، فلما كان موت يزيد بن معاوية كثرت غارات الروم عليهم فانتقلوا عنها «غير أن عمارتها جددت فيما بعد فكانت من أهم ثغور المسلمين»^(٤).

وفتح حبيب بن مسلمة حصن الحدث، وكان معاوية يتعمده بعد ذلك ثم هدمه الروم في خلافة مروان وأجلوا عه أهله^(٥). وأسكن معاوية قاليقلا ألعي رجل وأقطعهم بها القطائع وجعلهم مرابطة^(٦).

(١) فتوح البلدان ١٤٩.

(٢) فتوح البلدان ١٤٩.

(٣) فتوح البلدان ١٨٤.

(٤) فتوح البلدان ١٨٧.

(٥) فتوح البلدان ١٨٨، ياقوت ٢١٨/٢ - ٩.

(٦) فتوح البلدان ١٩٧.

وقد ساعد تحصين المواقع التي تقع على المنافذ الرئيسة بين دولتي الروم والعرب على تقوية الدفاع عن الدولة الإسلامية، واقتصرت نشاط الروم في هذه المنطقة على الإغارة على هذه الحصون وتدميرها، ولم يقوموا بحركات واسعة تتغلغل في داخل البلاد الإسلامية، مما يظهر شعورهم بالعجز عن ذلك.

أما العرب فقد تابعوا نشاطهم لحربي، فكانوا يرسلون حملات سنوية للإغارة على أطراف بلاد الروم، وكان عماد هذه الحملات الجيش العربي المقيم في بلاد الشام، ويعتبر الاشتراك فيها مصدراً للفخر وجهاداً مبروراً فضلاً عن الغنائم التي كثيراً ما تظهر بها هذه الحملات. واهتم الخلفاء بهذه الحملات فكانوا يختارون لقيادتها قواداً يتميزون بالشجاعة والمهارة والخبرة، وكثيراً ما اختاروا لقيادتها رجالاً من أولاد الخلفاء أو أقاربهم، مثل يزيد بن معاوية ومسلمة بن عبد الملك وعبد الله بن عبد الملك. وقد قاد بعض الخلفاء بأنفسهم بعض هذه الحملات

وأغلب هذه الحملات كانت تتخذ في الصيف، فتسمى الصوائف، ولكنها كانت تمتد أحياناً في الشتاء فسمى الشتاوي، غير أن الشتاوي كانت قليلة نسبياً بسبب صعوبات المناخ والثلوج التي تكوّن أخطاراً إضافية عليها

كانت هذه الحملات تخرج من القواعد الرئيسة في أنطاكية وملطية وتتوغل في الأطراف الواقعة قرب حدود الدولة، غير أن بعض الحملات توغلت في أعماق الأنضول، ففي سنة ٢٥ قاد معاوية بن أبي سفيان حملة توغلت حتى وصلت عمورية^(١).

وأظهرت هذه الحملات قوة العرب الهجومية وشاغلهم وحماسهم في قتال الروم، وساعدت على بقاء الروح القتالية، وأتاح المجال لتدريب الجيش، كما أنها كانت مصدراً لإقلاق الروم غير أن هذه الحملات لم تكن ذات أثر مصيري حاسم ما دامت لا تستهدف القسطنطينية ذاتها. وقد أدرك الخلفاء

(١) فتح البلدان ١٦٣.

الأمويون ذلك، وقاموا بحملتين كبيرتين استهدفت كل منهما فتح القسطنطينية والقضاء على دولة الروم.

الصوائف والشواتي

إن انسحاب جيش يزيد من حصار لقسطنطينية لم يوقف معاوية عن متابعة إنعاز الشواتي إلى بلاد الروم طوال السنوات الست التالية من خلافته. وذكرت المصادر العربية أسماء قادة الحملات ولكنها لم تذكر وجهاتها.

وظلت البحرية الإسلامية نشطة في هذه الفترة. ففي سنة ٥٣هـ فتح المسلمون رودس ونزلوها «وزرعوا واتخذوا أموالاً ومواشي يرعونها حولها، فإذا أمسوا أدخلوها الحصن ولهم ماطور يحذرهم ما هي البحر ممن يريدهم كبير، فكانوا على حذر منهم، وكانوا أشد شيء على الروم، فيعرضونهم في البحر فيقطعون سفهم، وكان معاوية يدر لهم الأوراق والمطاء، وكان العدو قد خافهم»^(١).

وفي السنة التالية، أي سنة ٥٤هـ فتح المسلمون جزيرة أرواد، وأقاموا فيها^(٢).

وفي سنة ٦٠هـ دخل المسلمون رودس وهدموا مدينتها وحمل أهل مصر إلى رودس الطعام^(٣).

ولما ولي يزيد الخلافة أمر بسحب الحاميات الإسلامية من الجزر التي احتلوها، بما في ذلك رودس، وأرواد وقبرص^(٤)، ولعله كان مدفوعاً إلى ذلك بإدراكه قوة الروم وقدره عاصمتهم على الصمود وإحساسه بالمشاكل المتوقعة من بيعته.

(١) الطبري ١٥٧/٢، تاريخ خليفة ٢١٤.

(٢) الطبري ١٦٣/٢.

(٣) الطبري ١٩٦/٢، تاريخ حبيبة ٢١٨.

(٤) الطبري ١٥٧/٢، ١٦٣.

واستغل الروم الانقسامات التي حدثت في الدولة الإسلامية على أثر وفاة يزيد، وحاولوا استعادة بعض الأراضي من الدولة الإسلامية، فأعادوا تنظيم بلادهم، ووضعوا على أطراف حدودهم مع الإسلام حاميات قوية منحوا أفرادها الإقطاعات وزودوا قوادها بسلطات عسكرية وإدارية لتمكينهم من الصمود وحماية الحدود. وقامت أساطيلهم بمهاجمة عدد من المدن الساحلية العربية كعسقلان وصور وأنطاكية وحرصوا الخزر على الهجوم على أرمينية، والبربر على الثورة في شمال إفريقيا، كما حرصوا الجراجمة على التمرد وتهديد الأمن في الشام.

ولما وليَّ عبد الملك بن مروان الخلافة كانت تواجهه تحديات واسعة من الثوار والمدعين بالخلافة، فاضطر إلى مواءمة الروم وتعهد بأن يدفع لهم ألف دينار أسبوعياً^(١) لدرء خطرهم، كما صالح الجراجمة بأن أغرامهم بالمال^(٢)، وبذلك تفرغ لمواجهة خصومه ومعارضيه في العراق والحجاز بخاصة، وقد أفلح في التغلب عليهم والقضاء على الانقسامات، وأعاد إلى الدولة وحدتها في ظل خلافته^(٣).

مركز تحقيق مكتبة التراث الإسلامي

واهتم عبد الملك بأمر الروم، فجعل الجزيرة الفراتية وأرمينية ولاية إدارية واحدة، ونقل إليهما القبائل القيسية من الشام^(٤)، وولى عليها أخاه محمد بن مروان الذي عمل على تثبيت وتوسيع سلطان العرب في أرمينية، فازدادت أهمية هذه المناطق وأصبحت فيها قواعد المسلمين في هجماتهم على بلاد الروم، وتتابع حملاتهم السنوية، فغزوا سمسطية (٧٣) ومرعش (٧٥، ٧٦) وأزقلة (٧٨) ومرج الشحم (٧٩) وقالبقلا (٨١) وحصن سنان (٨٥) والمصيصة (٨٤)، وكانت انطاكية أبرز القواعد التي توجهت منها حملات المسلمين.

(١) فتوح البلدان ١٥٩، ١٦١؛ أنساب الأشراف ٢٩٩/٥، ٣٣٩.

(٢) الطبري ٢/٧٩٦؛ فتوح البلدان ١٥٨ - ١٦١.

(٣) انظر عبد الأمير دكسن: الخلافة الأموية.

(٤) انظر من الجزيرة الفراتية فتوح البلدان، العلائق الخطيرة لابن شداد، ج ٣، محمد المشهداني: الجزيرة الفراتية، كانارد «المحمدانيون» (بالفرنسية).

ولما وَلَّى الوليد بن عبد الملك تابع سياسة أبيه في توجيه الحملات السنوية من تلك المناطق، ففي سنة ٨٩ تم فتح هرقله، والبندون، وفي سنة ٩٣ غزت سمسطية، وفي غضون ذلك وسع العرب سيطرتهم على الأطراف الشمالية من أرمينية في شرق الأناضول.

وفي سنة ٨٣ بنى عبد الله بن عبد الملك طرندة بالقرب من ملطية وجعلها قاعدة لإخضاع أرمينية^(١) وفي السنة التالية بنى عبد الله حصن المصيصة وشحنه بالرجال^(٢).

وفي زمن الوليد كذلك فتح مسلمة حصن طوانة الواقعة عند جبال طوروس، فقطع صلة الروم بالجراجمة، كما حصن أنطاكية وقوى سورها ونقل إليها جواميس من العراق لتخفيف أخطار الأسود التي كانت تهدد المارة بينها وبين المصيصة^(٣) وشحن أرض سلوقية، وأقطع جندما الإقطاعات^(٤).

أسندت قيادة الحملات الإسلامية إلى قادة بارزين وَلَّى بعضهم أكثر من حملة، ومن أولهم بسر بن أبي أرطاة الذي قاد ست حملات (ما بين ٤٣ و ٥٢) وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وقاد ثلاث حملات (٤٤، ٤٦، ٤٨) ومالك بن عبد الله الخثعمي وقاد أربع حملات (٤٦، ٥٤، ٥٨، ٦٠).

وقاد ثلاث حملات كل من سفيان بن عوف الأزدي (٥٠، ٥٢، ٥٥) وفضالة بن عبيد (٤٩، ٥٠، ٥١).

وقاد حملتين كل من عبد الله بن قيس الفزاري (٥٥، ٥٧) وأبي عبد الرحمن القيني (٤٧، ٤٨).

(١) فتوح البلدان ١٨٤.

(٢) فتوح البلدان ١٦٤.

(٣) فتوح البلدان ١٦٦.

(٤) فتوح البلدان ١٤٧.

وقاد حملة واحدة كلٌّ من معاوية بن صبيح (٤٥) وعبد الله بن كرز البجلي (٤٩) ومحمد بن عبد الرحمن (٥١) ومحمد بن عبد الله الثقفي (٥٢) وعبد الرحمن بن أم الحكم (٥٣) ومحمد بن مالك (٥٤) ومالك بن عمرو (٥٥) وعمرو بن محرز (٥٥) وعياض بن الحارث (٥٦) وعمرو بن يزيد الجهني (٥٨) وعمرو بن مرة الجهني (٥٩).

وقاد يزيد بن معاوية حملة على القسطنطينية (٥٠) ثم قام المسلمون بحملتهم الكبرى على القسطنطينية بقيادة مسلمة بن عبد الملك في زمن خلافة سليمان. إلا أنها لم تحقق غرضها في فتح القسطنطينية، فكانت هذه الحملة آخر محاولة جدية يقوم بها العرب لفتح القسطنطينية وإزالة دولة الروم، كما أنها كانت آخر محاولة يقوم بها الأمويون للتوغل في آسيا الصغرى، وقد اتخذ العرب منذ ذلك الوقت موقفاً دفاعياً بشكل عام.

وكان الموقف الدفاعي واضحاً عندما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة وتم انسحاب القوات العربية في زمنه، فإن هذا الخليفة أوقف التوسع في الجبهات كافة وسحب القوات الإسلامية المتوغلة في أواسط آسيا وفي شمال إسبانيا، أما على جبهة الثغور الشامية فقد حاول هدم المصيصة^(١)، وهي الحصن الأمامي للقوات الإسلامية في طرف البحر المتوسط، كما أخرب طرندة، وهي الثغر المتقدم في منطقة الفرات الأعلى، واكتفى بتعمير ملطية^(٢). وقد قام الروم في زمنه ببعض الهجمات على أرمينية وسواحل بلاد الشام، ولكن هذه الهجمات كانت محدودة الأثر ولم تغير من اتجاهاته السياسية الجديدة، وهي إيقاف التوسع والعمل على نشر الإسلام ومعالجة المشاكل الداخلية والعمل على انسجام شعوب الدولة العربية.

ولما توفي عمر بن عبد العزيز تجددت الحروب بين العرب والروم، وقام العرب بتقوية بعض الحصون الدفاعية، فجدد هشام حصون المثقب والمورد

(١) فتوح البلدان ١٦٥، ١٦٦.

(٢) فتوح البلدان ١٨٥.

ويوقا^(١)، وتقدم بنفسه لاستنقاذ ملطية عندما هاجمها الروم^(٢)، وعبر الوليد بن يزيد الجسر الذي بين أضنة والمصيصة^(٣)، كما أعاد بناء حصن زبطرة^(٤).

ولما ولي مروان بن محمد الخلافة انشغل بإخماد الثورات التي قامت ضده فاستغل الروم ذلك وحاصروا مرعش وأجبروا أهلها على الجلاء^(٥)، كما هدموا حصون الحدث^(٦)، وزبطرة^(٧). ولكن مروان استطاع استعادة مرعش وتجديد أسوارها.

غير أن هجمات الروم تجددت على حدود الدولة العربية، مستفيدة من فرصة انشغال العرب بالاضطرابات الداخلية التي حدثت نتيجة انقسام البيت الأموي في الشام، والانتفاضات المتعددة التي حدثت في مختلف أنحاء الدولة وخصوصاً في خراسان حيث أعلن العباسيون ثورتهم التي توسعت وتغلغت حتى أدت أخيراً إلى زوال الدولة الأموية.



مركز بحوث التاريخ الإسلامي

-
- (١) فتح البلدان ١٦٥ - ١٦٦.
 - (٢) فتح البلدان ١٧٩.
 - (٣) فتح البلدان ١٦٧.
 - (٤) فتح البلدان ١٩١.
 - (٥) فتح البلدان ١٨٨.
 - (٦) فتح البلدان ١٨٩.
 - (٧) فتح البلدان ١٩٠.